مدن الملح

المُنْبَتّ

«كل شيء في القصر ثقيل خانق، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الصمت، ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين. وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة، لأن كل كلمة تسبب اختلافا، وأية نظرة تولد شقاقا.

«وليالي بادن بادن ليست مثل أية ليال غيرها. فهنا الصمت قوي فضاح، والظلمة لها بريق يغشي البصر، فإذا امتلأت بالرعود والأمطار، فعندئذ يحس الانسان أنه محاصر بآلاف الأعداء. وعندها يغادره النوم، وتستيقظ فيه المخاوف، فلا يعرف هل يبقى حيث هو أم يهرب إلى أي مكان لعل فيه تكون النجاة.

«إنه المنفى.

المكان البارد، الموحش، الذي يشعرك دائما أنك غريب، زائد، وغير مرغوب فيه. المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتا، فيصبح لاصقا بك كالعلامة الفارقة. وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الأبدي، كالقبر، لا يمكن الهروب منه أو مغادرته.»

لوحة الغلاف للفنان فاتح المدرس
تصميم الغلاف: الفنان كاظم

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير،
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت، ص.ب ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس LETHRKAY ـ ٤٠٠٦٧

ى الأصفياء في منتدى ليلاس..
بدر

مدن الملح

«٤»

المُنْبَتّ

عبد الرحمن منيف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عبد الرحمن منيف

رواية

مدن الملح

«٤»

المُنْبَتّ

المؤسسة العربية
للدراسات
والنشر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص. ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى ١٩٨٩

«... فإن المنبتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

حديث شريف

هبطت الطائرة في شتوتغارت بعد رحلة طويلة ، اطول مما توقعها السلطان . ولقد تخللها الكثير من الاسئلة ومراقبة الاماكن ومحاولة النوم ، وحين لم تكف هذه الأمور طلب جلالته أن يوافيه إلى مقصوراته شايع السحيمي لكي يحدثه ويؤنسه .

كان شايع يروي له قصة نبي الله يوسف ، حين جاءه كبير المضيفين يبلغه أن الطائرة تقترب من شتوتغارت . تحرك شايع ليغادر المقصورة ، قال له السلطان :

ـ قلت لي اربع لا يشبعن من اربعة . . . ما هو كذا ؟

ـ أي نعم ، يا طويل العمر . اربع لا يشبعن من اربعة : عين من نظر ، واذن من خبر ، وارض من مطر ، وانثى من ذكر .

مطّ الكلمة الأخيرة وهو ينهض . ابتسم السلطان . مسّد لحيته عدة مرات، وبدأ وجهه يكتسب الحزم تدريجياً.

في شتوتغارت كان الاستقبال مليئاً بالحفاوة والمرح . بدا السفير متهيباً اقرب إلى الخوف أو الارتباك ، لكن بمرور الوقت اصبح واثقاً ومتألقاً .

في السيارة التي أقلّت السلطان ، ورافقه ممثل عن بلدية المدينة والسفير ، جرت احاديث سريعة عن الطقس والخضرة والمسافة إلى بادن بادن . أما عند القصر فقد كانت فرقة موسيقى بافارية تنتظر ، وقد أدت لجلالته التحية ، ثم عزفت الحاناً مرحة ، واستمرت حتى بعد أن تجاوز الجميع البوابة . أما في

حديقة القصر فقد نصبت عدة طاولات ، وضعت فوقها الازهار والفواكه والحلويات .

بعد استراحة قصيرة غادر الضيوف والفرقة الموسيقية . وبطريقة لا تخلو من مكر ، هيأ رجال السلطان احتفالاً على طريقتهم الخاصة ، تعبيراً عن الفرح ، ورداً على موسيقى الالمان .. وقد شارك الجميع ، وفي لحظة معينة كاد السلطان يشارك ، لكنه تردد ثم صرف النظر ، رغم أنه لم يتوقف عن هز رأسه دلالة الفرح. وبدرت من النسوة جرأة غير معتادة، إذ وقفن على أكثر من شرفة وتابعن الرقص.

كان السلطان مأخوذاً بالجمال الذي يطوقه من كل ناحية . ولفت نظره أن ضوء النهار باهر ، والشمس لا تغيب. استغرب ذلك، نظر إلى ساعته أكثر من مرة . لاحظ ناصر السحيمان ، السفير ، استغراب السلطان ، قال بمداعبة :

- هذي الديرة غير ديرتنا ، يا طويل العمر . صيفهم غير صيفنا ، وشتاهم غير شتانا . . .

التفت إلى أكثر من ناحية، ابتسم ابتسامة الواثق وأضاف:

- وبعض الأيام ، يا طويل العمر ، الشمس تغيب من الغرب ، وبعد ساعتين أو ثلاث تناظرها من الشرق .

قال السلطان وهو يقهقه :

- هذي هي الجنة التي وعد الله بها المتقين .

قال زيد الهريدي بافتتان:

- لعن الله والدين الالمان، متين جابوا هذي الخضرة كلها؟

ولم يهدأ السفير ، ولم يتعب ، وهو يحدث السلطان عن الحقول والغابات والانهار . وكيف أن الانسان لا يستطيع اجتياز الغابة السوداء القريبة ، وأن الحكومة تدفع للمزارعين مبالغ طائلة من أجل دفع الغابات قليلاً إلى الوراء ! تظاهر السلطان بالاهتمام والمتابعة ، لكنه بدا مشغولاً بأمر آخر . في احدى اللحظات سأل بمرح :

- والناس ، بهذي الديرة ، ما ينامون ؟

وحين نهض ليأوي إلى فراشه ، خاطب الموجودين بمداعبة :

- هذي الديرة ، يا جماعة الخير ، ما لها رباط . ليلها مثل نهارها ، ورجالها مثل نساها ، والأخير أن البني آدم يتوقى!

حتى ظهر اليوم التالي ، انشغل السفير ورجال السفارة باعادة ترتيب اقامة الحاشية والمرافقين ، إذ جرت مشاورات عديدة ، تدخل فيها الكثيرون ، من أجل توزيع الحرس ، وتغيير الغرف ، وتأمين المترجمين والسيارات . ورغم أن ترتيباً مبكراً قد أعد ، وتم الاتفاق عليه مع ادارة الفندقين اللذين خصصا لنزول الحاشية ، إلا أن المراجعات والصخب ، إضافة إلى التغيير المستمر ، خلق ارباكات عديدة . أما موضوع الطعام فقد ظل مشكلة غير قابلة لاي نوع من الحل ، لأن الاكل الذي اعده الفندقان لمائة وسبعين شخصاً ، لم يتناول شيئاً منه سوى المرضى وعدد محدود من الذين بقوا في الفندقين .

ما كاد يعود السفير عند الظهر ، ويعرض على جلالته رغبة وجهاء الجالية العربية بزيارته والسلام عليه ، حتى رد السلطان بطريقة لا تخلو من ضيق :

- خلنا نشوف الدنيا يا ابن سحيمان، وجماعتنا نلحق عليهم .

والتفت وواصل الحديث ، وكأنه يخاطب زيده وحده :

- وهذول ، جماعتنا ، ما عندهم إلا سوالف الحريمات : قلنا وقالوا ، والأخير نخليهم للتالي !

في فترة بعد الظهر ، أثناء قيلولة السلطان ، وصل من بون السكرتير الأول للسفارة . اختلى بالسفير فترة ، وما كاد يغادر ، حتى اهتزت غرفة زيد الهريدي ، إذ دخلها السفير مضطرباً اصفر الوجه ، وقد تصبب منه العرق . ومن خلال الاصوات العمياء والاشارات نقل لزيد الخبر .

لفترة غير قصيرة ساد الذهول والصمت ، وحين تمالك زيد نفسه سأل :

- وأنت متأكد يا ابن الحلال ؟

يهز السفير رأسه مؤكداً ، ولا يقوى على أن تلتقي عيناه بعيني زيد إلا للحظة خاطفة ، لحظة مليئة بالخوف والتوسل . يتابع زيد :

- ما هو معقول ، يا ابن الحلال !
- هذا ما حصل يا شيخ . يلهث ويضيف : والحكومة الالمانية بعثت تريد اقابلها اليوم بعد الظهر .
- وشنهو اللي نقوله لطويل العمر ؟ ومن هو اللي يقوله ؟

وحين يصمت السفير ، لا يقوى على الرد أو النظر إلى عيني زيد ، يتابع زيد محدثاً نفسه :

- ابد ما هو معقول ، يا جماعة الخير . وفنر ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وبعد فترة صمت يضرب زيد على ساقه ، ويسأل من جديد بلهجة مختلفة :

- خاف تكون السالفة من أولها إلى تاليها: قيل عن قال؟

يرد السفير بيأس :

- خلنا نشوف الحكومة الالمانية ، وبعدها الله كريم !
- والحكومة الالمانية ويش اللي درّاها ؟ ومن علمها ؟
- هذي حكومة يا ابن الحلال .
- وحنا شنهو حنا ؟ زق ؟ فزاعة خضرة ؟
- حاشاك يا شيخنا ، بس هذي حكومة وعندها علوم كثيرة .
- وإذا رحت ، متى ترد ؟
- من ساعتي ماشي ، يا مبارك ، وباكر ارد.
- ولباكر تخلينا نضرب اخماس باسداس ؟
- بعد المقابلة اتصل بكم ، وما اترك احد إلا وانشده ، وباكر ، انشاء الله ،

اجيكم بالعلوم ، وعسى تكون علوم زينة .

- وطويل العمر ؟
- خل طويل العمر بعرسه ، وباكر نشوف .
- وإذا سمع من غيرنا ؟ إذا علّمه احد ؟
- انت موجود ، يا شيخنا ، وما اظن يصله احد .
- وانت . . . اريدك تعلمني بكل شيء ، بالتلفون ، بطارش، شلون ما كان ، واريدك ما تبطي .

وبعد قليل :

- متى ترجع ؟
- ما ابطي عليك يا شيخ زيد ، وإذا قدرت ارجع اليوم.
- ترى إذا غيبتك طالت امورنا حارت .
- وكّل الله يا شيخنا .
- اعتمادنا على الله وعليك ، وانشاء الله بعودتك تجي البشاير ونتخلص من هذي المصايب .

بعد العصر كان مزاج السلطان رائقاً وجليلاً :

- « . . . واول رجعتنا ، يازيد ، بالخير والسلامة ، يلزم تذكرني : العجيّزة ، الشيخة ، لا بد ونزورها ونحب راسها. تعبت الحريمة ، يلزم نطيّب خاطرها ، وهي ما تريد أكثر .

«ويلزم، يا زيد، نروح لجماعتنا. نزورهم ببيوتهم. نشوفهم ونسألهم : شلونكم يا جماعة الخير ؟ انشاء الله مرتاحين وراضين علينا ؟ وإذا نسيناكم ، يا جماعة ، فسبحان من لا ينسى . لكنها الدولة وهمومها ، ويلزم تسامحونا ، وعسى الأيام اللي تجي احسن من الأيام اللي راحت . ويلزم تسمع منهم يا زيد . خل كل واحد يسولف . يقول اللي يريده . وحنا لازم نسمع . نقول

لهم : الحق حق ، وما ينزعل منه ، واللي تقولونه صحيح ، لكن البني آدم عقله ما هو دفتر ، ينسى ، تغره الحياة الدنيا أو تشغله ، لكن بعد هذا اليوم ابد ، ذاك يوم وهذا يوم . وإذا زعلنا يا زيد نكون مخطئين .

« ويلزم تسأل عن كل واحد ، يازيد . لأن جماعتنا ارواحهم عزيزة ، والواحد منهم يموت وما يقولّ آخ . وانت تعرف : اولاد الحرام سدوا علينا كل باب . كل يوم بوجوهنا ، وسوالف واخبار . وقالوا وقلنا . وبعدها : الله اكبر . وبعد الصلاة : تفضلوا يا جماعة الخير . وكلّهم لقّامة ، وابد ما يقولون لا . ياكلون ويتسوكون. وإذا قمنا قاموا . وثاني يوم سروة يجون . وإذا سألنا : وين فلان يا جماعة الخير؟ يسكتون ، يتناظرون بوجوه بعضهم ويسكتون . وإذا سألناهم نوبة ثانية يقولون : ما ندري .

وأمس يا زيد تذكرت شداد، وتذكرت شمران. صار سنين وأيام ما شفنا شمران . قال لي حماد : شمران ما عنده سالفة إلا سوق الحلال . قلت لحماد : اتركوا سوق الحلال بمكانه . قال لي : سوق الحلال صار اثر بعد عين ، ومكانه ما هو مناسب . قلت له : اتركوا الناس يترزقون . قال لي : العوالي أخْيَر لهم واوسع .

« يلزم تذكرني ، يا زيد، إذا رجعنا بالخير والسلامة حتى نزور شمران ، فإذا شفناه كلمة منا وكلمة منه وتصفى القلوب ، لان الناس إذا تناظروا وجوه بعضهم ، إذا قالوا اللي بقلوبهم تصفى . اما إذا قيل عن قال خاست ، واولاد الحرام يحصدونها .

« ويلزم ، يازيد ، أن الواحد يقول اللي له واللي عليه . وموران اليوم ما هي مثل أمس. أمس كنا ندوّر ونقول: عطونا يا جماعة الخير: دين، قرضة حسنة . اليوم ، وبعد ما افاض الله علينا يلزم نقول : خذوا . وما نترك احد يجوع أو يحتاج . لاني بين يوم والثاني اسمع من الحريمات : فلان ذابحه الجوع . وفلان محتاج وما يلقى . وبمجالسنا، يا زيد، كلهم يحمدون ويشكرون. لكن الناس ما هم بس اللي يجونا.

وبعد اليوم، يا زيد لا تترك الشيبان، اللي ما عندهم إلا: قال الله وقال

الرسول، يملون مجالسنا ويسدون بيبانا. خلنا نروح للناس، خلهم يجونا. وبعدها نسوي اللي الله يقدرنا عليه، لأنه بعد اليوم مالنا عذر، وما لنا شفاعة عند أحد».

يستريح السلطان قليلاً ، يتذكر وجوهاً واموراً كثيرة ، لان الاطياف القديمة تعاوده من جديد ، فتتغير لهجته :

« ـ وحماد ، الله يصلحه ، ما عنده إلا سالفة : احذر وتوقّ يا طويل العمر . اولاد الحرام كثر وقلوبهم ماليها الطمع . واقول له : يا ابن الحلال ، جماعتنا وحنا ادرى بهم . عطهم . خلهم يشبعون ، لأنهم إذا شبعوا ارتخو وفترت حركتهم ، وما يهمهم فلاني وتركاني . ويقول : المؤامرة الفلانية . الجماعة الفلانية . الشخص الفلاني ، كلهم طامعين ويتآمرون . واقول له : سوالف يا حماد ، وأخاف جماعتك هم اللي يتقشون ويكتبون ، وتراهم واهمين . يقول : حنا متأكدين ، يا طويل العمر ، وعندنا الدليل » .

يهزّ السلطان رأسه. يحاول أن يضحك ، فلا تخرج من فمه الاهمهمات ساخرة . يتابع :

« ـ ولو قدر حماد كان سد بيبانا ، وما خلى حتى الطير يمر فوقنا أو احد يتقرب منا » .

وتغيرت اللهجة ، اصبحت آمرة واقرب إلى الحدة :

« ـ لكن من رجعتنا ، يا زيد، نقول لهم : اتركونا . افتحو بيبانا وخلوا الناس يجونا، ومثل ما سوى المرحوم أبوي نسوي . لا نخاف ولا نجفل. وما تاخذنا كلمة وتردنا الثانية . ونقول لحماد : وانت يا حماد إنسَ هذي السوالف ولا تخف ، واولها وتاليها : المقدر لازم يصير . »

ويضيف مخاطباً نفسه :

« ـ اي نعم ، أي نعم هذا اللازم ، وهذا اللي يصير . »

وبعد أن يخيم الصمت ، وكل من الرجلين يفكر بامور مختلفة تماماً عن الأخر ، يقول السلطان وهو يتلفت حواليه :

«ـ وبعد ما انعم الله علينا يلزم نسوي موران جنة ، يا زيد. البيوت ، الشوارع ، الحدايق ، المدارس . ومثل ما قال لي الجماعة قبل شهر أو شهرين ، قالوا : مشكلة موران : الماء . إذا توفر الماء كل شيء يتغير . وما دام الله اعطانا وتفضل ، وما دامت الفلوس واجدة ، تقدر نجر الماء من كل مكان ، نحفر البيار ، ونحفر القاع . . . » .

وتتغير اللهجة مرة اخرى ، تصبح تعليمية :

«ـ الماء يجر الماء ، يا زيد، مثل الفلوس تجر الفلوس . فإذا ربّعت قاعنا ، وإذا زاد زرعنا ، وصار الشجر والثمر ، ترى ديرتنا تتغير . تصير موران مثل البستان . »

وتصبح اللهجة آمرة من جديد :

«ـ برجعتنا ، يا زيد ، لا تنس تذكرني : كل من يحفر بير الحكومة تساعده . كل من يزرع شجرة الحكومة تساعده . وما يروح يوم ويجي الثاني إلا والسلطنة كلها ، من حران إلى البقعة ، من المطالع إلى عين موسى ارض خضرا مثل هذي الديرة واحسن .

« وتذكرني ، يا زيد : المدارس على حسابنا . الاجزخانات على حسابنا . وتعالوا يا ناس ، تعالوا يا أولاد الحلال : كل من يريد يعلم اولاده : ولا قرش. كل من يطب الاجزخانه ما يدفع ولا قرش. وما هو بس كذا، كل واحد يخرج من الاجزخانة معافى اكرامية: دشداشة وعباية، وفي أمان الله. واللي يموت يدفن على حسابنا !

« الناس ، من قبل، يا زيد ، جواعا . الخبز ما يحصل . تذكر ذيك الأيام . هالحين لازم ياكلون ويشبعون . وكل واحد بموران عنده عيال ، عنده اكثر من اربعة يلزم الحكومة تعاونه . الفلوس من فضل الله واجدة . وخذوا يا اولاد الحلال ، انتم النشامة وتستاهلون، وما ننسى احد ابد .

« والمحابيس يازيد . الله يرحمه خريبط، كان بكل عيد يطلق قسم منهم . كل واحد جرمه خفيف ، كل واحد بقي له مدة قصيّرة ، تعال يا فلان ، ترى

هالمرة سامحناك ، وأنت من اليوم طليق ، لكن إذا جيتنا نوبة ثانية ترى ما تخلص منا . تسمع ؟ وبعد ما يسمع ويطيع : اعطوه قرشين يا جماعة ، وخله يدوّر أهله .

« وحنا يا زيد نسينا هذي العادة ، سوّيناها نوبة ، وبعدها الشيطان ، الله يخزيه ، نسّانا . هالحين من رجعتنا ، أول شيء تذكرني به هالمساكين . ذكرني ولا تمل ، وما يهم عيد أو ما هو بعيد ، يلزم هالمساكين يرجعون لاهلهم . » .

ويهز رأسه اسفاً لهذه الاخطاء التي وقعت دون أن يفطن لها ، ودون أن يذكّره بها احد . يضيف بحزن :

«ـ واللي ذبحوهم جماعتنا هنا وهنا ، يا زيد ، لا تتركوا اهلهم إلا وترضوهم . حطوا بجيب كل واحد منهم قرشين ، وقولوا لهم : عفا الله عما مضى ، وحنا اولاد اليوم » .

وتتغير النبرة .

«ـ لأن هذول إذا ما كانوا راضين تراهم يسوون كل شيء . يلزم ترضوهم ، يا زيد . واريد منك انت وحماد أن تحضروا لايحة بكل اللي ذبحهم الجماعة من يوم استلامي العرش. وتعالوا يا اخواتهم ، يا اهلهم ، وتبلغونهم : ترى يا جماعة الخير طويل العمر ما يدري . لا عرف ولا سمع . وتعرفون : براسه الف شغلة وشغلة ، لكن لما جا من قال له ، قال : ابد ما يصير . وهالحين هو اللي امرنا . قال : شوفوهم ، طيبوا خاطرهم، واللي يريدونه يصير . وحنا ، يا جماعة الخير ما نقدر إلا ننفذ أوامر جلالة السلطان . تسمع يا زيد؟ لا تتركوا احد ابد ، لأن من هذا الباب تجي الريح ، فإذا خلصنا منهم تخلص الطلايب ، ونخلص من سوالف حماد . » .

وبعد أن قدم الشاي والقهوة مرتين ، طلب جلالته، خلافاً لليوم السابق ، أن يعد له الطعام في جناحه الخاص . ولما خيم الصمت وطال ، قال السلطان يواصل حديثه:

«ـ هذي الديرة تعجب ، يا زيد . من ساعة ما حطينا رجلنا بالمطار ،

والى هنا ، والخضرة ما فارقتنا . وبيوتهم زينة ، والناس شبعانين ، ويلزم موران ، وعموم السلطنة ، تصير مثل هذي الديرة . ويلزم الامراء كلهم يجون ويناظرون . إذا شافوا الغيرة تاكل قلوبهم ، وبعدها : يا الله يا جماعة . ازرعوا وعمّروا ، وما تمر كم سنة إلا وموران مثل الجنة . ومثل ما قلت، يا زيد : الماء نلقاه . توصله المواسير ، ينجرّ ما دامت الفلوس واجدة . المهم أن الواحد ينوي . » .

وربما خطر للسلطان خاطر وهو يتكلم ، إذ فجأة سأل :

ـ وينه ناصر؟ ما شفناه المسويات ؟ .

ارتبك زيد الهريدي الذي ظل صامتاً طوال الوقت . رد بصوت بدا حزيناً :

ـ نسيت اعلّمك ، يا طويل العمر ، الحكومة الالمانية طلبت مقابلته ، فاستأذن وسافر .

ـ الحكومة الالمانية طلبت مقابلته ؟

ـ وقال انه ما يبطي .

قال السلطان بزهو :

ـ الله اعلم انهم يريدون يشوفونا ، وهذا اللي قاله صاحبهم بالمطار .

وبعد قليل :

ـ ومثل جماعتنا ، بعد اليوم الثالث يسألون ويتقصّون .

مرت نسمة خفيفة فارتجف زيد . تراءت له موران بعيدة مستحيلة . سأله السلطان :

ـ ومتى يرجع ؟

ـ ما ادري ، يا طويل العمر ، لكنه قال انه ما يتأخر .

هز السلطان رأسه دلالة الفهم والموافقة ، واضاف :

ـ اريدك ما تنسى ابد اللي علمتك به يا زيد ، واريدك تذكرني بكل شيء . . .

وتغيرت لهجته ، اصبحت حزينة :

ـ لأن الناس إذا تحملوا وسكتوا ، تراهم ما يحتملون اكثر ، وإذا ما قالوا بوجوهنا ، يقولون إذا قفينا ، إذا مشينا ، وعندها الله يستر .

وظلت انوار القصر تتلألأ ، واصوات الضحكات تسمع بعد مضي ساعات على مغادرة السلطان للحديقة . كما شوهد اكثر من مرة يخرج إلى الشرفة ، وكانت معه عروسه ، وكانت معهما أم العروس في احدى المرات .

وزيد الذي دخل إلى البناء الجانبي ، عند بوابة القصر ، ابلغ آمر الحرس أن لا يسمح بدخول احد ، ايا كان ، عدا السفير ، حتى صباح اليوم التالي . وظل يتقلب في فراشه وينتظر ، ولم يستطع أن يغفو لحظة واحدة .

- . . . والله ، والله لو ظل بعمري ساعة واحدة ما اتركهم ولا اخليهم يفرحون .

ويهز السلطان رأسه بسرعة وبطريقة آلية تشبه اهتزاز رأس الحرذون. يغيب . يحاول أن يتخيل ما حصل ، ثم فجأة يصرخ بحقد :

- قالوا لارواحهم : ابو مشعل طيب . طيب ويده مبسوطة وصدره واسع ، ويحمل مثل بعير ؟ وقالوا : كم يوم وينسى ؟ لا مخطئين . هالحين يلزمهم يعرفون من هو ابو مشعل . لأن أبو مشعل مع الكريم اكرم ، ومع اللئيم العصا، وماله بقلبي رحمة. ويلزمهم يعرفون: ما هو كل من ركب الفرس فارس، ولا كل من حمل السيف صار عنتر بن شداد.

يتنفس بعمق وحسرة ، وكأنه يريد أن يمتص الهواء كله ، ويتابع بلهجة مختلفة :

- قالوا لارواحهم : غاب البس العب يا فار ؟ قالوا : بعيد ونقدر نسوي كل شيء ؟ تراهم مخطين وواهمين ، ورراح ياكلون اصابعهم ندامة ، لأن بعد كل ليل صباح ، وبعد كل نشوة صحوة . . . ونشوف .

ويضرب على الطاولة ، التي جلس وحده في جانب ، وجلس السفير وزيد الهريدي في الجانب الآخر ، ويهدر صوته :

- من هذا اليوم ، من هذي الساعة ، أنا كوم وهم كوم ، وما عاد بقلبي رحمة ، ولا لاحد منهم شفاعة . . .

ويضرب الطاولة مرة اخرى :

- والله . . والله لاخلي الدم يصل للركب ، وبيدي هذي لاقص رأس كل من خان ، وكل واحد اشترك ، وتشوفون .

ويخيم الصمت ، صمت ثقيل مدوٍ ، فتبدو الانفاس ثقيلة ، وكأنها خارجة من اعماق بعيدة. لا يقوى احد أن ينظر إلى وجه الأخر ، إلى عينيه؛ لأن في تلك النظرة النهاية .

تحرك السلطان قليلاً ، وقال بلهجة آمرة قاسية :

- إذا قالوا لك يا ناصر انهم ما يريدوني ، وإذا قالوا انهم يرمون طيارتي إذا وصلت موران ، فقل لهم : تعالوا لهنا. قل لغنر: ابو مشعل يريدك ، يلزمك تجي فوراً ، ومن رأسك لرأسه تتفاهمون . يا الله ، قم وقل هذا الشيء .

ويحاول ناصر السحيمان أن يشرح من جديد أنه حاول مرات كثيرة الاتصال مع موران ، لكن موران لا تجيب . لا تستقبل اية نداءات تلفونية . وكل ما وصله عن طريق البرقيات ، والبرقيات واضحة لا تحتمل التأويل ، ويختم كلامه برجاء :

- وانت ، يا طويل العمر ، أب للجميع . ورأيي أن نصبر يوم او اثنين ، ولا بد أن يندموا ويتراجعوا .

وحين يحاول أن يضيف كلمات اخرى تفزعه صرخة السلطان :

- قم واتصل بهم قبل كل شي .

ويتصل ناصر السحيمان بالسفارة ببون، ويسأل بصوت عالٍ ما إذا عادت الاتصالات مع موران، وحين يتلقى جواباً بالنفي، يحاول أن يشرك زيداً في سماع الجواب ، فيصرخ السلطان :

- لكن وين يروحون مني هالكلاب؟

ويزفر وتتغير اللهجة :

- يا عباد الله انا اللي سويتهم . أنا اللي عطيتهم . قلت لهم : خذوا . قلت

لهم : صيروا مثل الناس والعالم . وسكت على فضايحهم وسرقاتهم ، سويت روحي لا شفت ولا سمعت ، وبعدها اليد اللي ربتهم وعطتهم يعضونها ؟ الصدر اللي حماهم يسوون به كذا ؟ هذا وين صار ، ومتى صار يا عباد الله ؟

يزفر بحرقة ثم يتابع :

- اسمع يا ابن سحيمان : تبرق لهم هالحين ، تعم هالحين : إما يجوني ، وخاصة فنر، يجي ويحب يدي ويقول أخطيت واطلب السماح، أو اركب طيارتي وامشي ، وهناك إذا تواجهنا نتحاسب ، ولكل حادث حديث .

وحين يهز ناصر السحيمان رأسه دلالة الموافقة ، ويحاول أن يجمع نفسه لكي ينهض وينفذ الامر ، يسأله السلطان :

- والالمان ، الخنازير ، قالوا لك : نقبله ، ونوافق على اقامته ، لكن بشرط : ما يشتغل بالسياسة ؟

ويهز ناصر رأسه للتأكيد ، فيهدر صوت السلطان :

- يخسون ، ما نريدهم ولا نريد دبرتهم .

وبعد قليل :

- لا هم ولا غيرهم يقولون لنا شنهو اللي يلزم نسويه . حنا شورنا من راسنا ، ما هو مثل غيرنا . ونسوي اللي نريده .

ويخيم الصمت من جديد ، يصبح ثقيلاً مرهقاً ، فيحاول زيد أن يجد مخرجاً :

- نزوة شباب ، يا طويل العمر ، وتنقضي .

- فنر ما هو صغيّر يا زيد. فنر بعمري . وهذا اللي سواه ما هو بنزوة. جا من شار عليه ، وقال له تسوي كذا وكذا ، ولا بد يكون مستشاره ابو العيون الزرق والسنون الفرق ، ذاك الابليس الانكريزي . لكن ما يخالف ، إذا تواجهنا ، إذا بحّرت به لا بد واعرف كل شي . شنهو اللي قاله الاميركان

والانكريز، وشنهو اللي قاله الحريمات، ومن وزّه، ومن معه . بسيطة ، نتواجه ونشوف .

- ظني يا طويل العمر أن الندامة راح تاكل قلوبهم ، وباكر يزحفون طالبين التوبة والعفو .

- ما اريدهم ولا اريد توبتهم ، لأنّا من هذه الساعة قوم ، وغلطة مثل هذي ما تنصلح يا زيد ، يلزم يندفع عليها مخاضة دم وتتعلق روس ، حتى ما يعاودوها نوبة ثانية .

ويهز السلطان رأسه هزات طويلة متصلة ، وهو يستعرض كل شيء ، وحين يصل إلى نقطة يعتبرها حاسمة يصرخ :

- اتصل بالحكومة الالمانية يا ابن سحيمان ، وقل لها السلطان يريد يكلّم موران ، ولا بد أن يوصلونا بموران .

- حاولت ، يا طويل العمر ، حاولت بكل الوسائل . والغريب أن الحكومة الالمانية نفسها حاولت الاتصال بسفيرها بموران ، لكن ما حصّلوا جواب . الخطوط كلها مقطوعة ، وموران معزولة عن العالم الخارجي .

قال زيد ، وخرجت الكلمات من بين اسنانه :

- الله العليم أن الجماعة ابد ما سيطروا ، ولا بد تكون المقاومة مستمرة ، والناس حملوا سلاحهم ضد الفئة الباغية ودفاعاً عن العرش.

- الحق اللي تقوله يا زيد ، لأن القوي ما يخاف ، ولا يقطع التلفونات . . .

هكذا قال السلطان ، واضاف بعد قليل بنزق :

- وهذا الزق راديو أو تابوت ؟ ما به إلا يقحّ ويشخر ، وما ينفهم منه شي !

والتفت إلى ناصر السحيمان :

- ومتى اتصلت بموران آخر مرة ؟

- يوم وصولك ، يا طويل العمر . بعد اقلاع الطائرة اتصلوا وابلغوني أن طويل

العمر غادر موران ، متوجهاً إلى هنا .

- وكانوا يريدون امشي ؟

- ما ادري ، يا طويل العمر ، بس هم اتصلوا وقالوا : غادرت الطائرة .

- كانوا يريدون امشي ، أن اغيب عن وجوههم ، لأنهم جبناء ورعاديد ما يقدرون على شي وأنا موجود .

وساد الصمت من جديد .

سُمعت حركة خارج الغرفة . تنبهت الحواس . بدت عينا السلطان حمراوين وكبيرتين ، وكانت شفته العليا ترتجف . حين رأى أن العيون تعلقت به ، صرخ بوجه زيد :

- قم ، شف من .

قام زيد متعثراً . فتح الباب . وجد كبير الخدم ، الألماني ، ومعه اثنتان من الخادمات ، وبدا من الاشارات والحركات ان وقت تنظيفْ هذه الغرفة قد حان . عاد زيد . قال كلمات متعثرة ، فهمت أن لا شيء .

قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه :

- دز برقية هالحين يا ابن سحيمان، تقول: السلطان يطلب مجيء فنر فوراً، وعليه التنفيذ.

وبعد قليل :

- وإذا تأخر ردهم ، تدز برقية ثانية ، تقول : السلطان راكب وماشي ، وهو واصلكم بين ساعة والثانية . وما يشوفوني الا فوق روسهم ، وإذا كان بهم خير أو بهم مرجلة ، خلهم يرمون الطيارة.

قال زيد في محاولة لأن يخفف من الهياج :

- الصباح رباح يا طويل العمر ، وظني انهم راح يندمون ويتوبون .

رد السلطان بحدة :

- اسمع يا زيد ، الجماعة ركبهم ابليس . قالوا لأرواحهم : راح وما يقدر يسوي شي . وحنا نقدر نسوي اللي نريده ما دام بعيد وغير موجود ، لكن إذا شافوني فوق روسهم، إذا عرفوا أن السلطان طبّ ووصل ، يصيرون مثل الارانب ، يسلحون على هدومهم ، وكل واحدمنهم يدوّر السلامة ويختبي بحجره.

والتفت إلى ناصر السحيمان ، وبلهجة آمرة :

- حضروا الطيارة من الفجر ، نعم ، حضروا الطيارة، لأن البني آدم يعيش بالدنيا نوبة واحدة ، وأريد اشوفهم إذا وصلت الطيارة، وإذا رموها بينّا حساب بالدنيا وبالآخرة .

بعد الكثير من الجهد والمشقة امكن اقناع السلطان أن الافضل والاقرب إلى الحكمة تأجيل الرحلة يوماً أو اثنين . وقد تعهد السفير أن يبرق إلى موران بالسرعة الكلية ليخبرها بكامل الأوامر، ويطلب مجيء فنر فوراً . وعلى ضوء الجواب يمكن أن يتصرف السلطان . أن يبقى هنا أو أن يعود إلى موران مباشرة .

لقد حصل الاتفاق على هذا الحل بعد الكثير من الجهد وفترات التفكير والصمت ، إضافة إلى محاولات اتصال مجددة مع موران . ثم مع السفارة . وقد طلب السفير من عنصر المناوبة في السفارة أن يبلغه بأي اتصال ، وفوراً ، خاصة إذا كان من موران ، وإلى قصر صاحب الجلالة في بادن بادن ، وفي أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، وأن يطلب التحدث مباشرة مع السفير أو مع الشيخ زيد الهريدي.

في اليوم السابع وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى بادن بادن . وصل قبل الظهر بقليل . بدا متعباً مريضاً ، حتى أن الذين فتحوا له بوابة القصر لم يعرفوه لأول وهلة . أما بعد ذلك ، وخلال فترة قصيرة ، فقد انتشر خبر وصوله بسرعة ، وترافق ذلك مع الكثير من الاخبار والتوقعات ، الامر الذي حمل اغلب الذين رافقوا السلطان ، وكانوا ينزلون في فندقين وسط المدينة ، على أن يتوجهوا إلى القصر ، انتظاراً لسماع الاخبار الجديدة ، بعد أن امتلأوا خوفاً وحيرة خلال الأيام السابقة ، لكن زيد الهريدي لم يسمح إلا لعدد محدود بالبقاء ، وطلب من الآخرين العودة .

وللمرة الثانية يأمر السلطان بتأجيل الزيارة التي كان يفترض أن يقوم بها أحد موظفي الخارجية الالمانية « لأن السلطان لن يكون قادراً على استقبال أحد ، نظراً لانحراف صحته » . أما موظفو السفارة الثلاثة الذين بقوا في بادن بادن ، وتحت تصرف صاحب الجلالة ، بعد أن اضطر السفير لمغادرة المدينة عائداً إلى بون « لاعمال طارئة ، ومن اجل اجراء مزيد من الاتصالات لاستجلاء الموقف » ، فقد طلب منهم ، بعد وصول الحكيم ، « أن يكونوا في حالة الجاهزية الكاملة ، لأن أوامر هامة سيصدرها السلطان ، وعليهم أن يقوموا بنقلها فوراً » . لكن ذلك اليوم انقضى ، وجاء بعده الليل ، وظلت انوار القصر مشعة حتى ساعة متأخرة ، دون أن يتغير شيء ، أو يظهر احد ، ولم تصدر الأوامر التي ظلت متوقعة في كل لحظة .

ضحى اليوم التالي ، شوهد السلطان والحكيم يتمشيان في الحديقة الخلفية للقصر . لأول مرة يشاهد السلطان بعد تلك الليلة . بدا هرماً متعباً ،

وكأنه خارج لتوه من المرض . كان لا يتوقف عن هز رأسه ، دلالة أنه يسمع ويتابع . وبدا الحكيم منفعلاً حاداً وهو يتحدث . ظلا كذلك ساعة من الزمن ، ثم دخلا القصر . ولم تمض دقائق حتى استدعي زيد ، وطلب منه الاتصال بالسفير واستدعاؤه فوراً . وبعد اتصالات عديدة ، تخللها الانتظار والتشاور ، أوضح السفير أنه « لن يستطيع مغادرة بون بناء لتعليمات من موران ، وانه سيوفد نيابة عنه السكرتير الأول للسفارة . وسوف يحمله رسالة هامة» ورغم الاتصالات العديدة التي جرت لاحقاً، اشترك في أحدها الحكيم، فقد ظل جواب السفير واضحاً وقاطعاً :

ـ تعليمات موران ، يا جماعة الخير ، واضحة جداً . تقول التعليمات : لا تغادر بون إلى أي مكان ، حتى تصلك تعليمات جديدة.

واشار السفير ، بشكل غامض ، إلى أن من الافضل للجميع ، وأكد على الكلمة الأخيرة بالذات ، بقاءه في بون . وقد فهمت هذه الكلمة ، وفسرت ، بشكل متفائل ، الامر الذي جعل الحكيم يفكر ثم يقترح أن يسافر بنفسه إلى بون لاستقصاء المعلومات ، وليحمل بنفسه الاخبار الطيبة والهامة التي اشار إليها السفير بغموض .

بعد امعان تفكير وتردد ، قال السلطان بأسى وحدة :

ـ توكل على الله يا أبو غزوان ، بس لا تبطي .

استغرقت الرحلة يوماً وليلة . وحين عاد الحكيم قبل عصر اليوم التالي ، وقد رفض السلطان تناول الغداء مبكراً ، خلافاً لعادته ، « «لأن الحكيم بين لحظة والثانية يصل وتتغدى جميع » فلم يفكر السلطان، بعد عودة الحكيم بالغداء ، ولم يقترح عليه ذلك سوى مرة واحدة ، لكن بدا للجميع أن الامور تسير عكس التوقعات ، وإن كل شيء منته .

فالحكيم الذي قرر ، بينه وبين نفسه ، أن يطلب من السفير تقديم احتجاج ، والطلب من الحكومة الالمانية الاعتذار رسمياً ، لأنها تأخرت في منحه تأشيرة الدخول ، رغم أنه أوضح للسفارة الالمانية في بيروت صفته ،

والسبب الذي يسافر من أجله ، فقد اصرت السفارة انها لا تستطيع منحه التأشيرة قبل أن تحصل على موافقة بون ، مما اضطره للبقاء اسبوعاً كاملاً ينتظر . هكذا فكر الحكيم أن يبدأ . وقرر ايضاً أن يتصل بموران من السفارة مباشرة والتحدث الى الأمير فنر شخصياً. وقرر أن يكون واضحاً وحازماً معاً، وأن يبلغ السلطان بالأخبار والنتائج دون تأخير.

الآن ، وهو يعود ، دون أن يفعل أياً من هذه الامور ، كما لم يستطع أن يرد على استفسارات زيد الذي كان ينتظره عند البوابة الخارجية للقصر ، ولم يرفع عينيه إلى الحرس ، أو إلى الذين كانوا عند المحرس الداخلي يدخنون ويثرثرون ، وقد نهضوا بسرعة وارتباك حين رأوه ، وهم يرفعون ايديهم بحيوية ومعها اصواتهم : « الله يقويك ، يا ابو غزوان . القوة يا ابو غزوان » ، وكانوا يتطلعون إليه بإمعان في محاولة لاكتشاف النتائج حتى دون كلمات .

رد الحكيم على تحياتهم بسرعة ، بأن هز يده ، دون أن ترتفع إليهم نظراته . كان متأكداً ، تلك اللحظات ، أن قواه تخونه ، وأن وجهه يفضحه ، أكثر من ذلك ، ظن أن الدموع لا بد أن تنفر من عينيه . آثر أن يردّ هكذا ، وأن يهرول .

السلطان ، وهو يرى الحكيم داخلاً بذلك الشكل وبتلك الملامح ، ولأنه لم يتصل من بون، ادرك كل شيء . قال له بصوت تخنقه العبرة :

ـ تعال . . تعال استرح هنا ، يا ابو غزوان .

لم يكن يريده أن يتكلم ، أن يتحدث أمام سلمى وامها . كان يشعر بالحزن والضعف في آن واحد . وكان يحاول تغليف حزنه وضعفه بالصمت ، أو بتلك الثورات المفاجئة ، وهو يأمر بالقهوة ، بالماء ، أو بمجيء أحد من رجاله .

كانت الأيام الأولى قاسية إلى درجة الألم ، وكانت حزينة وطويلة ، وأن ظل يشوبها التوقع والامل . أما بعد أن جاء الحكيم ، وبعد أن سافر إلى بون وعاد ، فقد اصبح الألم قهراً والحزن يأساً . ومما زاد الخوف والتشاؤم أن سرى الهمس ، ولا يعرف كيف تسرب ، إن كل من هو مع السلطان سينال من

العقاب اقله السجن مدى الحياة ، وإلى أن يعود سيكون اهله واقاربه رهائن في موران .

ورغم أن مراهنات كثيرة ، وبأموال طائلة ، جرت بين نزلاء الفندقين ، حول احتمالات أو أخرى ، واضطر عدد من هؤلاء إلى « استئجار » مترجمين ، غير الذين خصصوا من السفارة ، لمعرفة آخر الاخبار ، سواء بترجمة اخبار الصحف والاذاعات ، أو باعطائهم ارقام الهواتف في موران لكي يتصلوا ويعرفوا من الاهل والاقارب ، وليتأكدوا فقط انهم لا يزالون احياء وفي بيوتهم ، فإن الاشاعات والدسائس والاخبار التي انتشرت بين نزلاء الفندقين ، ما لبثت أن انتقلت إلى القصر ، فخلقت تشويشاً إضافياً ، وزادت الحيرة والترقب والخوف .

حاولت أم غزوان، بمكر واضح ، أن تحمل الحكيم على الكلام، لكن محاولاتها انتهت إلى الفشل، لأن السلطان كان يقرأ في الصمت، وفي الملامح ، ما لا يمكن أن تقوله الكلمات، ولذلك كان فظّاً قاسياً حين طلب مغادرة النساء . قال بحزم:

ـ اتركوه يا جماعة الخير . خلوا عرقه ينشف .

وبعد قليل :

ـ ضاقت ارواحنا من السوالف ، ومن القيل والقال ، فاتركونا يرحم والديكم .

حين خرجت أم غزوان ، وكانت الأخيرة التي تخرج ، قال الحكيم :

ـ . . . ومثل ما قلت لك، يا طويل العمر: الجماعة راكبين روسهم وما هم مصلين على النبي، حاولت معهم، لكن لا حياة لمن تنادي. فنر رفض الكلام. حماد لما عرف صوتي ارتبك. أما مطيع فقال: بعدين بعدين يا خالي.

وبعد قليل :

ـ هذي الشغلة ما هي شغلتهم ، لا بد من قال لهم .

- هذا اللي قلته من أول ساعة ، يا أبو غزوان . لا بد أحد وزهم . وهذا الانكريزي اللي حميناه وعطيناه، مثل ذنب الكلب، نجس واعوج، والحق عليّ، بدل ما اقصّبه واخليه عبرة، قلت له: انطح فالك يا ولد ، دور لك ديرة غير هذي الديرة ، وما نسيها ، ظل يداور ويحاول ، حتى اقنعهم ، وسووا اللي صار .

- يا ابو مشعل ، يا طويل العمر ، المسألة ما عادت تحتمل ، ولا يمكن السكوت . . .

- بس علمنا باللي صار واللي جرى ، يا ابو غزوان .

- العلوم كلها ما عاد منها فايدة يا صاحب الجلالة. الآن، المطلوب الموقف، الحزم. وإذا بدأنا نحلل ونتفلسف تراها راحت علينا.

- يا أبو غزوان، يا ابن الحلال، علمنا شنهو اللي صار معك. وبعدما نسمع نتداش شنهو اللي يلزم نسويه.

- يا صاحب الجلالة : حنا بواد والدنيا بواد ثاني . . .

وبعد قليل :

- السفير محرج وخائف، صحيح أن عواطفه معنا، ويريد أن يساعد، لكن الجماعة هناك ما هي فارقة معهم، وقد حرقوا كل الجسور، ولذلك يجب أن لا نتوقع نتائج من أي نوع عن طريقهم. لن يسمعوا ولن يفهموا، وليس بيننا وبينهم سوى السيف!

قال السلطان بعصبية :

- ما يخالف ، اللي تقوله صحيح ، يا أبو غزوان ، بس يلزمنا نعرف شنهو اللي جرى بينك وبين ابن سحيمان .

- اطلعني السفير ، يا صاحب الجلالة ، على برقية . البرقية تقول : بلغ السلطان السابق أنه إذا اراد أن يبقى اخاً وموضع تقدير، وأن يعيش ، فيجب أن ينسى الماضي ، وأن الاجراءات التي اتخذت كانت ضرورية

للحفاظ على السلطنة وعلينا جميعاً . يجب عليه أن يفهم هذا الشيء ، وإذا اخطأ أو اغتر فلا بد أن تنعكس النتائج على الجميع ، وإلى اضرار لا تترك شيئاً ولا ترحم احداً .

تنفس الحكيم ملء رئتيه وتابع :

- وتقول البرقية : ابلغوا السلطان السابق أن مصاريف اقامته ، واية مبالغ يحتاجها ، يمكن تأمينها بشرط : أن يصمت ، وينسى أنه كان السلطان . . .

وزفر وهو يهز رأسه بلوعة ثم اضاف :

- وقالت البرقية ، وقد خبأ السفير بعض الفقرات : إذا كان له رأي آخر فلنا رأي آخر ،ولا بد أن يعرف .

مع الكلمات الأخيرة اخذت دموع السلطان تنحدر على خديه ولحيته . كان يبكي بصمت . لم يحاول أن يخفي دموعه .والحكيم الذي فوجىء، للحظة، وجد نفسه ، دون ارادة ، يجهش بالبكاء ايضاً . بدأ صوته اقرب إلى المواء ، ثم تحول إلى نحيب ، وكأنه يختزن ، منذ وقت طويل ، دموعاً تفوق طاقته على الاحتمال .

لم تصدق وداد اذنيها ، دهمتها المفاجأة فارتبكت . أما حين شقت الباب قليلاً ، ورأت الحكيم يضرب رأسه ويبكي ، وكان يجلس قبالة السلطان ، فقد خافت . اغلقت الباب بسرعة، وهربت .

واخذ القصر يغرق في الصمت والعزلة ، وكثيراً ما غرق في الظلام ايضاً . فالانوار لا توقد إلا في وقت متأخر ، ولا تطفأ حتى بعد أن تملأ اضواء الشمس الكون كله ، لأن لا أحد يفطن إلى ذلك ، أو لديه الرغبة في أن يفعل .

واكثر الناس حيرة وعذاباً ، فلا يعرف كيف يتصرف أو كيف يرد على الاسئلة والنظرات، هو زيد الهريدي . فالمرافقون والاقرباء والحرس يتدفقون على القصر، وبدل أن يستفسروا يحملون الأخبار والتعليقات والخوف، حتى اصبح من الصعب التحكم بهم أو ضبطهم . أكثر من ذلك بدأت تعليقاتهم تتجاوز التساؤل إلى السخرية والتعريض .

زيد الذي كان قوياً مرهوباً ، وتكفي نظرة منه ، أو اشارة ، لأن تحمل أي انسان على السكوت ، لم يعد قادراً على وضع حد للهرج والفوضى اللذين يزيدان كل يوم .

مقابل الصمت الذي خيم على القصر ، بلغ الاضطراب في الفندقين حداً زاد على كل تصور. فالنزاعات بين النزلاء أنفسهم لا تتوقف ولا تهدأ. والنزاعات بين هؤلاء والاداريين تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر . والمترجمون الذين كانوا يسهلون الحركة والتفاهم بين الطرفين تواروا ، أو لم يعودوا قادرين على القيام بمهمتهم ، لأنهم اصبحوا عاجزين عن التفاهم مع أي من الطرفين . أما موظفو السفارة الثلاثة، فقد جاءوا إلى القصر وأبلغوا زيداً الهريدي أن اثنين منهم سوف يغادران إلى بون، تلبيةً لتعليمات من السفارة ، وأن الثالث سيبقى.

وإذا كان السفير ، ثم الثلاثة ، قد عجزوا عن تقديم المساعدة المطلوبة خلال الأيام الماضية، فقد رد زيد على الطلب الجديد بكثير من السخرية :

ـ بعون الله وبعونكم شفنا كل خير ، وتأمن لنا كل شي . وهالحين يلزم أن الواحد منكم يستريح مثل ما استراح السفير!

وضحك وهو يهز رأسه ، ثم اضاف :

ـ أنتم ناس شوركم ما هو من روسكم، أنتم عبيد مأمورين، ومثل ما قالوا: اللي ياكل من تمرهم يقوم بأمرهم، فيلزم، هالحين تدّورون أهلكم!

موظف الخارجية الذي اجّلت زيارته إلى القصر للمرة الثالثة ، بحجة انحراف صحة السلطان ، وصل فجأة في اليوم الرابع لعودة الحكيم من بون . استمرت زيارته عشرين دقيقة ، ولم يعرف ما إذا قابل السلطان أم لا ، كما لم يتسرب أي خبر عما دار اثناء هذه الزيارة ، ومع ذلك لم يبق أحد إلا ورأى الحكيم يودعه عند بوابة القصر الخارجية ، كان يهز رأسه دلالة الفهم ومتابعة ما يقوله . وحين غادر قفل الحكيم عائداً إلى القصر دون أن يكلم احداً ، حتى زيد الذي وقف عند بوابة الحرس وحياه اثناء عودته ، فقد رد عليه الحكيم باختصار وسرعة . قال زيد لنفسه : « إذا كان الغراب دليل قوم . . . » ومرت في مخيلته صور الحكيم منذ لحظة التعارف الأولى في حران وحتى هذه اللحظة ، قال بهمس ، وهو يبتسم : « إذا ظل ورانا ما راح تطول خطانا ، لأن من ورا شوره ما جانا إلا المصايب » .

دبت الحركة مبكراً ، وبشكل مفاجيء ، في القصر ، صباح اليوم التالي . تمشى الحكيم في الحديقة الامامية . توقف عند بعض الشجيرات ، تمعن بها، ثم فجأة، وكأن الفكرة واتته في اللحظة، توجه الى المبنى الجانبي الذي يقيم فيه زيد الهريدي ، ولم يمكث أكثر من دقائق ، خرج الاثنان بعدها وتجولا في الحديقة. كان الحكيم يتحدث ويستعين بيديه، وزيد يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة. ولم تمض نصف ساعة حتى افترقا. توجه الحكيم إلى داخل القصر، وزيد إلى المبنى الجانبي، وبعد دقائق انطلقت احدى السيارات لاحضار بدري المدلل من الفندق.

من يعرف بدري المدلل، ويمعن إليه النظر الآن ، لا يتصور أن عشرة أيام يمكن أن تغير انساناً بهذا القدر . فالبدلة الطحينية التي يرتديها تبدو واسعة جداً ، وكأنها لشخص آخر ، أكبر واضخم ، والحقيبة اليدوية التي يحملها تجعل كتفه الايسر يميل تحت ثقلها ، أما تعابير وجهه ولون بشرته فانهما يدلان على التعب والهم ، أو مثل انسان خرج لتوه من مرض.

هذا التغير حلّ ببدري منذ لحظة وصوله إلى المانيا . فالثقة التي ملأته أن يكون اقرب الناس إلى السلطان ، وأن ينزل معه في نفس القصر ، ما لبثت أن تبددت، إذ طلب منه أن يصعد إلى الباص مع آخرين لكي يتوجه إلى الفندق. وعندما تردد وابدى ممانعة ، أبلغ أن كل شيء معدّ سلفاً ، حسب القوائم ، ولا مجال لاي تغيير . ترافق هذا مع غمزات وتعليقات من بعض المرافقين الذين سمعوه في الطائرة يؤكد بصوت عالٍ أن غرفته ستكون إلى جانب غرفة السلطان مباشرة !

وزاد في هذا التغير العارض الصحي الذي اتعبه وأقعده، وعندما ابلّ قليلاً جاءت الاخبار الغامضة والمشوشة لتجعله اقرب إلى الانهيار . فقد أصبح على يقين أنه لن تتاح له فرصة العودة الى موران، وأن زوجته وابنه مصباح لن يستطيعا شيئاً أثناء غيابه أو بدونه. أما الأموال التي جمعها، فقد اصبحت في الارض والحجارة ، إذ اشترى أكثر من ارض ، واقام أكثر من بناء ، وتراكمت عليه الديون ، فلا يعرف كيف يعالج الموضوع بعد أن اصبح بعيداً ، وبعد أن كان مقدراً الحصول على عطايا كثيرة في هذه الرحلة .
الآن ، وهو يصل القصر ، يبدو مرتبكاً ، اقرب إلى الخوف . تطلع بإمعان إلى كل شيء لعله يفهم ما لم يستطع فهمه من ثرثرة الذين حوله في الفندق ، وسخريتهم ومخاوفهم . تخيل السلطان حزيناً مهموماً ، كما كان في فترات سابقة . انقبض صدره وامتلأ بالحزن فقرأ آية الكرسي.

انفتح الباب فجأة ودخل الحكيم . تطلع إليه للحظة خاطفة ، ثم هجم عليه . عانقه بكثير من المودة. دفن رأسه في صدره ، عند الكتف واطال ، وكأنه لا يريد أن تلتقي نظراته بنظرات بدري . ارتجف قلب بدري واحس

بمودة حقيقية تجاه الحكيم. لام نفسه أنه أساء الظن به إلى هذه الدرجة. قال في نفسه: «لا تعرف حقيقة الناس إلا في الغربة، أو عند المصائب».

قال له الحكيم ، وخرج صوته مرتجفاً :

ـ ما غبت عن بالي لحظة واحدة ، يا ابو مصباح .

تمتم بدري بكلمات مرتبكة ليعبر عن شكره . لم يمهله الحكيم :

ـ وفي الأول والأخير الناس لبعضها ، يا أبو مصباح ، والبني آدم ما ينعرف إلا بالتجربة .

وليداري أبو مصباح خجله، ويتخلص من هذا المديح الفضفاض، سأل بهمس :

ـ شو آخر الاخبار يا ابو غزوان ؟

عدل الحكيم جلسته ، تلفت ، ثم قال بصوت اراده صلباً :

ـ غيمة صيف ، يا ابو مصباح ، لا تطول ولا تمطر .

وضحك بمرح ، وهز رأسه اكثر من مرة ، ثم تابع :

ـ طيش شباب ، ولازم حدا لعب بعقولهم وقال لهم : استغلوا غيبة السلطان ، لكنها كم يوم وتنتهي على خير .

ـ الله يبشرك بالخير يا ابو غزوان .

ـ لا . . اطمئن من هذي الناحية ، يا ابو مصباح .

ـ وانشاء الله ما راح تطول اقامتنا هون ، يا ابو غزوان ؟

ـ بس يأمر صاحب الجلالة نركب ونمشي ، لأننا دائماً جاهزين وحسب اوامره .

ابتسم الحكيم وهز رأسه عدة مرات ، تطلع إلى بدري المدلل ليقرأ على وجهه مدى الاقتناع ، فلما رآه اقرب إلى الاطمئنان ، قال بلهجة متآمرة :

ـ تتذكر أول وصولك لموران يا ابو مصباح . . . .

وبعد قليل :

- انت اللي أعطيت للسلطان الشخصية والوجه ، وانت اللي غيّرت منظره من خلال لمساتك الفنية وعنايتك، لأنه قبل وصولك تعرف كيف كانت الامور . . .

هز بدري المدلل رأسه بكبرياء وقد تذكر . تابع الحكيم :

- المطلوب منك ، يا ابو مصباح ، اليوم ، اكثر مما كان مطلوب من قبل !

وتغيرت اللهجة ، اصبحت اكثر تآمراً :

- لازم تخلق منه صورة لا تغيب عن البال ابداً : القوة ، الشباب ، الحيوية . ولازم ، بمجرد النظر إلى صورته ، يولد في القلب الخوف والاحترام والهيبة .

بعد هذا التوضيح ، والذي تخلله ايضاً بعض الذكريات ، واهمية أن تظهر هذه الصورة بسرعة وقوة ، ادخل بدري المدلل إلى غرفة السلطان .

لم يتخيل بدري الاختلاف إلى حدّ الانكار إلا وهو يرى السلطان : بدا مسناً متعباً ، بل اقرب إلى المرض . ولما حاول الابتسام ظهر وجهه قبيحاً إلى درجة لا يمكن معها اجراء أي اصلاح . وحين هجم ليقبل يده سحبها السلطان بجفلة اقرب إلى الخوف .

كان الصمت موجعاً ، ولم تكن أية كلمة قادرة على تبديده . وعندما فتح بدري حقيبته ، وبدأ يعد ادواته ، كانت الاصوات الصادرة عنها تشبه اصطدام الاواني الفارغة .

بالاضافة إلى رخاوة الجلد ، وقد اصبح مثل كيس اللبن ، فقد انتابت السلطان ارتجافات عصبية في الوجنة اليسرى، قريباً من العين، الامر الذي جعل الحلاقة صعبة إلى اقصى حد ، وجعل بدري المدلل في حالة من الخوف اقرب إلى الهلع . فهذه الحركات العصبية ، وهي على شكل تشنجات مفاجئة ، كادت تؤدي إلى اخطاء لا يمكن تداركها .

قال الحكيم ، في محاولة لكي يسيطر على الموقف ويطمئن الاثنين :

- هذه التقلصات في الوجه تشبه حزقة البلعوم أو المري ، انها طارئة ، وغالباً ما تكون نتيجة اضطرابات هضمية ، أو بسبب الطقس .

وبكثير من الجهد حاول أن يضفي جوّاً من المرح ، فأكد أن الحلاقة والحمام والنوم تجدد الانسان وتنشطه ، وأنه يحس بولادة جديدة بعد كل حلاقة ، وبعد كل حمام !

حين انتهى بدري المدلل ، وتطلع إلى السلطان مواجهة ، ثم تطلع إليه في المرآة، بدا له كالدمية: فالبقع الحمراء في رقبته ظاهرة، وشارباه أصبحا دقيقين رفيعين بشكل غير مألوف ، بل ويثيران الضحك ، قياساً إلى ما كانا عليه . أما الشعرات البيض في لحيته فلم يستطع أن يمد يده إليها ، لأن وضع السلطان النفسي ، وارتجافات الوجنة ، لم يساعداه !

قال الحكيم بطريقة تقريرية صلبة :

- المساج اليومي ضروري لوجه صاحب الجلالة .

لم تنقض ساعة حتى امتلأ الصالون الكبير للقصر ، في الطابق السفلي ، بابرز الشخصيات التي رافقت صاحب الجلالة في رحلته . وصل حوالي عشرين من هؤلاء . وخلال فترة انتظارهم للسلطان كانوا ، بصمت ، يقلبون أنظارهم في أنحاء القصر، وفي وجوه بعضهم بعضاً، يقرأون ويتساءلون عن سر هذه الدعوة، وماذا يمكن أن يقال أو أن يحصل.

حين دخل السلطان ، وكان وراءه الحكيم وزيد الهريدي، حاول أن يتصرف بمرح : رسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، لكنها بدت اقرب إلى التكشير . أما وهو يتطلع إلى الوجوه ، ويسأل عن الرأي بالزيارة والمانيا ، فكان مظهره يثير الاستغراب والحزن ، فقد تغير تغيراً كبيراً ، وبدا للجميع مريضاً ومتعباً . أما الوصايا التي اكد عليها الحكيم عدة مرات ، بأن يتصرف تماماً كما كان يفعل في عيد الجلوس ، فقد نسيها ، إذ ما كادت دقائق قليلة تمضي حتى خيم صمت قاس اقرب إلى صمت المآتم .

تنحنح الحكيم أكثر من مرة لينبه السلطان ، فلما انتبه ارتجفت وجنته

ارتجافة عصبية زادته ارتباكاً، وأثار خوف الذين نظروا إليه وتساؤلهم.

تطلع إلى الارض بامعان ، وكأنه يبحث عن شيء ، وخرج صوته مرتجفاً :

ـ لا بد وانكم سمعتم أن اشياء واشياء صارت بموران بعد ما تركناها . وهذا الحكيم ، أبو غزوان ، كان هناك ، وراح يسولف لكم عن اللي صار واللي جرى .

عدل الحكيم جلسته ، تنحنح ، ثم اخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ :

ـ «لم يكد صاحب الجلالة يغادر موران حتى سوّلت للبعض نفوسهم المريضة الاصطياد في الماء العكر والتآمر تحت جنح الظلام ، فاستغلت هذه الفئة القليلة جهل عدد محدود جداً من العسكريين واغرتهم بالوعود الكاذبة والامال الموهومة لكي يقفوا معها ، لكن يقظة الشعب وتماسك الاسرة السلطانية والتفاف الجيش حول صاحب الجلالة لا بد وان يفوت على الغادرين غدرهم وعلى الحاقدين حقدهم ، ولا بد أن ترتد السهام إلى نحور الذين أطلقوها.

«ايها الاخوة الكرام : تعرفون أن صاحب الجلالة السلطان خزعل تمت تسميته من قبل المغفور له السلطان خريبط ، وانا على ذلك شهيد ، ثم تمت مبايعته من قبل الامراء جميعاً ، وهذه التسمية والبيعة دين في رقبة كل مسلم ، لا يمكن أن تنقض ولا يمكن أن تخان كما لا يمكن أن تسحب إلا عن طريق الشرع . أما إذا تصور البعض انه بغياب السلطان توضع اليد فلا بد أن يحارب ويقهر . وإذا تصور غيرهم أن التراجع عن البيعة سهل ميسور فإن دمه مباح مهدور لانه مرتد ومغرور . وإذا تصور البعض أن الدول تبنى بالرغبات والشهوات فلا بد أن يلقم حجراً ، لأن الدول لا تعترف إلا بالشرع والشرعية ، ولا تتعامل إلا حسب الاعراف والتقاليد . وعليه فإن جميع ما حصل ، من قيام هذه الفئة القليلة الباغية ، وادعاءاتها ومزاعمها ، لا يعتد به ، ولا يساوي قلامة ظفر ، كما لا يغير شيئاً . فما دام السلطان حياً وقادراً ، فإن البيعة باقية ، والسلطة ، بعد الله ، له وحده ، وكل تصرف يخالف ذلك ، ومن أي شخص ، يؤدي إلى هدر دمه . وصاحب الجلالة ، بما عرف عنه من أبوّة

وصبر وبعد نظر ، والذي رعى الجميع أمام الله وضميره ، إذا لم يتحرك ، ولم يلجأ إلى القوة ، حقناً للدماء ، فإن للصبر حدوداً ، وللتسامح حدوداً ، وللرحمة حدوداً . وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . » .

كان هذا أقصى ما يستطيع الحكيم أن يقوله. ورغم أن ما قيل لا يرضي احدا ، ولا يشفي غلا ، فقد كان كل من في القاعة مرتبكاً . لكن ذلك لم يستمر طويلاً ، إذ اندفع الموجودون ، واحداً بعد آخر إلى الوعيد والتهديد ، مع التأكيد أن ما حصل لا يمكن السكوت عليه أو التساهل فيه ، «وإذا أمر صاحب الجلالة نمشي من ساعتنا ، وما تأخذنا في الحق رحمة أو لومة لائم، نحاربهم ونعلق روسهم» . والحكيم الذي انفعل بهذا الجو تولى الرد نيابة عن السلطان ، قال ، وخرج صوته مرتجفاً :

ـ كنتم دايما، أيها الاخوة ، عند حسن ظن صاحب الجلالة وموضع ثقته ، ووجودكم هنا أكبر دليل على ذلك . وأنتم تعرفون أن للظلم جولة وللحق جولات ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

تنفس ملء رئتيه ، تطلع إلى السلطان يستأذنه أن يواصل في هذا المنحى ، هز السلطان رأسه بالموافقة والرضا ، تابع الحكيم :

ـ نعم ، لا يمكن السكوت عما حصل ، لكن من رأي صاحب الجلالة ، وفي هذه الفترة بالذات ، أن ننتظر قليلاً ، وأن نعطيهم الفرصة الأخيرة ، خاصة وأن الاتصالات جارية حالياً ، لعلهم يعودون إلى رشدهم، ويتراجعون عن غيهم . أما إذا ركبوا رؤوسهم ، واستمروا على عنادهم فليس بيننا وبينهم سوى السيف حكم .

قال السلطان بانفعال :

ـ الحق اللي تقوله يا ابو غزوان .

وحين بدأت التهديدات تتوالى من جديد ، تبادل والحكيم النظرات ، وكأنها اشعار بانتهاء الاجتماع . تحرك السلطان في مقعده ، كما لو انه باب

حجري يدور ، وما كاد ينهض حتى ارتجفت عضلة الوجنة ، ارتبك ، وبعد قليل ، وخرج صوته من بين اسنانه :

- تهون يا جماعة الخير ، ولا بد تشوفونهم شلون راح يندمون .

قال زيد الهريدي للضيوف بعد أن انسحب السلطان :

- يا جماعة الخير . . . طويّل العمر ما والمته هذي الديرة . من يوم وصولنا انحرفت صحته ، ولولا هذا السبب كنتم تشوفون غير اللي شفتوه هالحين .

ولما التفت الرجال بعضهم إلى بعض ، وكانت عيونهم مليئة بالتساؤل والخوف والهم، قال الحكيم ، وكان صوته أقرب إلى النشيد :

- وان غداً لناظره قريب .

قال زيد بسخرية :

- مثل ما قال الحكيم ، يا جماعة الخير ، لازم نطول بالنا ، ومن اليوم لباكر الله كريم .

كإلهام مفاجىء رنت الكلمة التي قالها غزوان قبل فترة طويلة في أذني الحكيم من جديد : «الحرب أخطر من أن يقرر أمرها العسكريون» .

وتراءت للحكيم الحرب التي يمكن أن تدور اكبر واخطر مما قد تبدو في الظاهر ، إذ لا تقتصر على عدد من الدبابات أو على مجموعة من المهووسين ، كما لا يمكن أن تحسم في يوم أو اثنين ، فهي تتطلب الاستعداد وتتطلب اساليب جديدة ، اساليب غير مطروقة . » .

هكذا قال لنفسه وقد شعر ببعض الراحة ، واضاف وهو يتنهد : « صحيح اننا خسرنا معركة لكننا لم تخسر الحرب » . رفع يديه إلى اعلى ، مثلما يفعل عادة ، وجرّ نفسين عميقين . حاول أن يبتسم ، لم يطاوعه فكاه ، بل وشعر بمرارة في حلقه .

قال لنفسه بحدة : « الوقت كالسيف » وقرر أن يتحرك :

- اسمع يا سمير ، انت مثل ابني غزوان ، ونحن عملنا معاً واصبحنا نعرف بعضنا جيداً . والآن نواجه نفس الصعوبات والتحديات . . .

نظر إليه بحزن ، هز رأسه اكثر من مرة وتابع بنفس اللهجة :

- لقد تشاورت مطولاً مع جلالته، وبعد المشاورات أعطاني الضوء الأخضر وفوضني أن نفعل كل ما نراه مناسباً لصالح القضية.

وتغيرت اللهجة :

- اريدك ، يا سمير ، أن تعطيني نفسك ، أن تكون ساعدي ومساعدي ، لأن

الامر ، في النهاية ، يعتمد على ما سنفعله . . .

وعاد إلى اللهجة الأولى :

ـ وانت تعرف أن القضية الآن ، وفي مراحل كثيرة لاحقة ، تعتمد على الفكر : كيف يمكن أن نقنع الناس بصحة وعدالة موقفنا ، وكيف نخرج من هذا الموقف . ومن هنا أهميتنا وضرورة تعاوننا .

لم يكن سمير بحاجة إلى هذه الديباجة ، ولم يكن بحاجة إلى تذكيره بأهميته وصعوبة الظرف الذي يواجه الجميع . قال بطريقة اختبارية ماكرة :

ـ المسألة ، يا ابو غزوان ، بين اخوة ، وانا وانت غرباء ، مجرد ضيوف في موران ، والانسب أن تبقى بعيدين !

ـ لا . . لا يا سمير ، المسألة مسألة مبدأ ، مسألة حق وعدالة ، ونحن اصحاب القضية . . ونخطىء إذا ترددنا أو تخلينا .

ـ لكن هم اسرة يا حكيم .

ـ ونحن من الاسرة !

هكذا رد الحكيم بانفعال وسرعة ، لم يكن ليقصد المعنى المباشر للكلمة ، وحين رأى ابتسامة سمير تابع ببعض الحرج :

ـ قصدي أن القضية أكبر من الأسرة وأخطر ، ومطلوب من كل انسان أن يحدد موقفه .

ـ وأيه فائدة موقف واحد مثلي يا حكيم ؟ .

ـ نحن الاساس يا سمير ، لأنه إذا صفت قلوبنا ، وإذا تضامنا وفكرنا بما يجب أن يُعمل فنحن أقوى من الدبابات وأكثر تأثيراً من الجيوش !

ـ انت متفائل قوي يا حكيم!

ـ وبعد قليل وهو يضحك :

ـ في هذا العصر يا حكيم الذي يملك اموالاً أكثر ودبابات أكثر هو الاقوى ،

وكل قوة اخرى في مواجهة المال والسلاح مجرد وهم ، فلا تغلط .

ـ يا ابني ، يا سمير ، مسألة المال لا تخف ولا تسل ، خير الله كثير ، والدبابات بدون عقل ، بدون فكر يوجهها تنقلب على اصحابها .

تنفس بهْم وكأنه يبحث عن طريقة جديدة لإقناعه :

ـ مثلما قلت لك يا سمير : اعطني نفسك ، ووظف الفسفور الموجود في دماغك للقضية وسوف ترى النتائج وتفاجأ بها .

ابتسم سمير وسأل بدعابة :

ـ « ونسر موران » اللي بقى لنا مدة نشتغل فيه ؟

ـ يمكن تأجيله لفترة ، لأن لدينا واجبات عاجلة .

لم تطل المناقشة . اتفقا على أن يجريا مناقشات عميقة وواسعة ، بعد أن يعدّ الحكيم ورقة عمل تكون أساساً لهـذه المناقشـات، وأن يفكر كـل منهما بالطريقة المناسبة والفعالة لمواجهة الموقف الجديد.

قال سمير وكأنه يخاطب نفسه ، ولكن يريد الحكيم أن يسمع :

ـ نحن اخطأنا في قضية اساسية : لو أن الجهود كلها انصبت وتركزت خلال الفترة الماضية على انجاز نظرية المربع لما حصل ما حصل .

هز الحكيم رأسه بلوعة ، ونظر بطرف عينه إلى سمير ليقرأ في وجهه ما إذا كان يعني الكلمات التي قالها أم لا . لما وجده جاداً حازماً ، قال بصوت مرتجف :

ـ اولاد الحرام ما تركوا لنا فرصة حتى نحكّ روسنا . كل يوم فتنة ، وكل يوم مؤامرة ، وتعال في مثل تلك الظروف فكر واشتغل.

وضحك بسخرية ثم اضاف :

ـ عند أهل موران مثل يقول : إذا جن قومك عقلك ما ينفعك ، وهذا اللي صار معنا يا سمير . . قلنا لحالتنا الأيام تعلمهم وتهديهم ، فتركناهم شوية وصار اللي صار !

الاجتماعات لا تهدأ ولا تتوقف ، في الليل والنهار. وزيد الهريدي الذي يرتب ويتصل ويشرف يحضر بعض هذه الاجتماعات ، ولا يحضر الاخرى ، لأن لديه دائماً ما يفعله . أما السلطان الذي يتفجر غضباً في بعض الساعات ، ويقرر أن « يركب ويمشي فوراً » ، فلا يلبث أن يصاب بالهبوط ، إذ يطلب الغاء الاجتماع أو تأجيله ، ودائماً الحجة موجودة لدى زيد : « انحرفت صحة طويل العمر » ثم فجأة يعود ويطلب مجيء فلان وفلان من الذين رافقوه للتشاور . والحكيم الذي لا يقيم وزناً لهذه « العراضات » كما سمى الاجتماعات ، « لأن مركز الثقل انتقل من الداخل إلى الخارج ، ولأن الذي سيحسم الموقف القوى الكبرى وليست سوالف هؤلاء المفاليس الكسالى والعاجزين». ويعجب الحكيم كيف أنه لم يتوقف عند هذه الفكرة الذكية التي قالها غزوان من قبل، وكيف أنه انشغل بقضايا صغيرة وثانوية، مثل غرفة التجارة والعجرمي واشباهه !

وحين تتبدى له من جديد صور هؤلاء الذين خدعوه أو تخلوا عنه ، يخرج صوته كالصرير من بين اسنانه :

اعــلّمــه الــرمــايــة كــل يــوم   فلما اشــتــد ســاعــده رمــانــي
وكــم عــلمــتــه نــظم الــقــوافــي   فــلمــا قــال قــافــيــة هــجــانــي

وتتمطى صورة حماد. تملأ مخيلته تماماً. يقول في نفسه: «ابن الزانية من نكرة لا يعرفه أحد إلى وزير داخلية عدو . من مجرد صعلوك ورجل ليل ، وصاحب المهمات القذرة ، ومعروف أن اذنه في يد النّخّاس دامية، إلى إنسان خلقناه وناسبناه ، ويعدين هذا جزاك يا ابو غزوان ؟ «خلال اربع وعشرين ساعة يجب أن تغادر موران . صارت موران موزانه ، وطلعنا نحن الغرباء . أي والله الحق معك يا حماد ، والله يكثر خيرك ويكثر من امثالك ، لأنك رددت الجميل بأحسن منه . كانت المياه جارية تحتنا ، ونحن يا غافل لك الله ، والبهايم اللي حوالينا لا من تمهم ولا من كمهم . ولا ابن حلال جاء وقال : انتبه يا ابو غزوان ، الجماعة حواليك مالهم شغلة الا يتآمروا عليك . وأنا من طيبة قلبي، من ثقتي بالناس، شغلتني أمور ثانية، لكن بسيطة، المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين، والله، والله لأصير معهم أقسى من الحجاج

مع أهل العراق، ولأجعلهم عبرة للأحياء والأموات، بس الأول لازم اركب. إذا ركبت الله كريم، وتشوف».

ولا يقطع عليه افكاره الا هؤلاء البدو الذين يتدفقون على القصر ، وإذا كان قد استأذن السلطان أن لا يحضر بعض الاجتماعات ، لانه سينصرف إلى اعداد بيان قوي يذاع على العالم حول الاحداث الأخيرة في موران، فإن السلطان لم يلحّ عليه ، إذ ترك له الحرية وبعض الاحيان كان يفضل الا يكون موجوداً!

وتتوالى الاجتماعات في القصر وتتزايد معها الخلافات والتهديدات في الفندقين ، وتعزل ادارة الفندقين ، الواحدة بعد الأخرى ، لكن بالتشاور والاتفاق بينهما بكل تأكيد « هؤلاء الرعاع القذرين» في المقهى الخلفي ، القريب من البار ، بدل الصالات الامامية ، « لأن الزبائن الآخرين ضاقوا من الاصوات العالية ومن اشارات المجانين ، إضافة إلى القذارة » ويضيف المترجم الذي يرافق مندوب السفارة ، وهما يحدثان زيد الهريدي :

- وإذا استمرت الامور بهذا الشكل باكر يرمون هدوم الجماعة في الشوارع وتصير مشكلة .

فيرد زيد بحنق :

- يا عباد الله الواحد منهم بعمر أبوي فشنهو بلاهم يتصايحون ويتعاركون؟

- جماعتكم وانتم ادرى بهم !

هكذا رد مندوب السفارة، وكان في كلامه تعريض لا يخفى. ابتسم زيد وقال:

- الحق حق، يا وليدي، جماعتنا وحنا أدرى بهم، وانشاء الله ما يصير إلا الخير!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته، اصبحت ساخرة تماماً :

- وانت يا وليدي ، جماعتك ما يبوك ؟ ما دزوا وراك ؟

- تقصد السفارة ؟

- كل واحد يدري بجماعته !

قال المترجم ليغير الجو :

- ومن رأيي أن تتدخلوا، أن تنبهوا عليهم ، لأن الالمان ما لهم امان ولا لهم صاحب !

ضحك زيد وقال :

- بهذي الأيام ما عاد ، يا ابن أخي ، امان لا للالمان ولا للعربان !

وحين قلب المترجم شفته وهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام ، تابع زيد :

- بسيطة يا وليدي . . . نشوفهم ونوصيهم !

حين عرض زيد على الحكيم أن يزور الفندقين وان يعمل على تهدئة الموقف ، كان رد فعل الحكيم عصبياً وسريعاً :

- الله يخليك يا ابو راشد هذه الشغلة ما هي شغلتي . شوفهم انت أو شوف واحد غيري ، وتفاهموا معهم !

- ولكنك ادرى بالالمان يا ابو غزوان.

- المسألة مسألة جماعتنا ، إذا جماعتنا تربوا وتأدبوا الالمان مالهم معهم شغل ولا في مشكلة .

ضحك زيد بغيظ ، وبعد قليل قال وكأنه يحدث نفسه :

- بسيطة ، على خيرة الله ، حنا نشوفهم ونقول لهم صيروا عاقلين ومؤدبين يا جماعة الخير ، ولا بد أن يفهموا ويسمعوا!!

ويصل في اليوم التالي السكرتير الاول للسفارة حاملاً رسالة شفوية من السفير ينقلها إلى زيد الهريدي والحكيم معاً : « سعادة السفير يبلغكم تحياته واحترامه ، وكان بوده أن يقوم بهذه الزيارة بنفسه ، لكن تعليمات موران بهذا الخصوص واضحة ، إذ يجب أن يبقى في بون ، وقد كلفني أن اقوم نيابة عنه بزيارتكم واطلاعكم على بعض الامور، وبدأ يقرأ :

- « موران قلقة بل منزعجة من النشاطات المعادية والتحريضية التي تتم في

بادن بادن ، وتعتبر هذه النشاطات غير الودية بمثابة موقف عدائي تجاهها ، الامر الذي يضطرها إلى اتخاذ موقف مقابل ، وقد أبلغت السفارة بضرورة موافاتها بجميع التحركات لكي تحدد الموقف على ضوئها . وسعادة السفير الذي بلغته اخبار الاجتماعات التي تعقد هنا ، والاتصالات التي تجري ، شديد الحرج ولا يعرف كيف يتصرف ، فهو من ناحية لا يمكن أن يتغاضى، لأن لديه قناعة أن هناك من يبلغ موران مباشرة ، ولا يمكن السكوت، لأنه مضطر لابلاغ موران بكل شيء، ولذلك يرجو أن تتوقف هذه النشاطات، وأن يسود التفاهم والاخاء بين الأطراف المعنيّة » .

بهذه الطريقة المتقنة الموجزة ، والمليئة بالاشارات ايضاً ، نقل السكرتير الأول الرسالة ، وإذا فاتت زيد دلالة بعض الاشارات أو العبارات ، فإنها لم تفت الحكيم ، سأل الحكيم بمودّة مصطنعة :

- هل تلقت السفارة رسائل اخرى من موران ؟

- لا ادري !

- وهل يطلب تبليغ السلطان برسائل اخرى غير هذه ؟

- هذا ما ابلغني به السفير وطلب اليّ نقله .

- ومعلومات السفارة حول النشاطات المعادية . . من اين ؟

- لا ادري .

قال زيد بسخرية مخاطباً الحكيم :

- عندهم واحد من جماعتهم يا ابو غزوان ، وهذا يناظر ويرّسل !

وهز رأسه بأسف ثم اضاف :

- وهذول التراجمة ، يا ابو غزوان ، يترجمون على الوجهين !

عندما قام الحكيم وزيد الهريدي بابلاغ السلطان ، في المساء ذاته ، برسالة موران والسفارة ، وقد تعمد الاثنان أن يمهدا لذلك ، وان يخلقا جواً يجعل الأمر عادياً، استبدت بالسلطان ثورة عارمة، لم يماثلها إلا ثورة الليلة

الأولى ، حين ابلغه السفير بما حدث في موران . خرج عن طوره واخذ يشتم ويتوعد ، ولام الاثنين ، وان كان يوجه كلامه في الغالب إلى زيد الهريدي، أن تركا الرجل يأتي ويذهب دون أن يبلغاه ، « إذ لو مسكناه وبعد سطرتين والثالثة يطلع كل اللي ببطنه وما يقول ادري وما ادري » . وزيد الذي نظر إلى الحكيم بسرعة ، لا يعرف كيف فاته هذا الامر ، إذ لو قبض على هذا الرسول وحبس يوماً أو اثنين فلا بد أن تؤخذ منه معلومات كاملة ، ولا بد أن تتردد السفارة في القيام بأعمال التجسس. قال زيد في محاولة لتخفيف غضب السلطان :

- هذا ما هو اول أو آخر رسول، يا طويل العمر.

- ولكنه كان بأيدينا يا زيد!

- إذا أمرت يا طويل العمر حتى السفير نجرّه مثل الخروف !

قال الحكيم بلهجة فخمة :

- يا جماعة الخير . . نحن في المانيا . . .

وبعد قليل وبصوت منخفض :

- كل فرد في السفارة له حصانة ، والحكومة الالمانية مسؤولة عن حمايته ، ولسنا بحاجة إلى عداوة الدولة الالمانية ، أو أن ندخل بمشاكل معها .

- حنا ما علينا بحكومة الزق ، بالحكومة الالمانية أو غيرها ، حنا علينا جماعتنا !

هكذا رد السلطان بغضب وهو يدور نصف دورة دلالة التعب أو الاحتجاج.

قال زيد ليغير الجو:

- ثارنا عند الجماعة هناك يا طويل العمر ، والرسول مبلغ ما هو ملوم .

- صحيح يا ابن الحلال لكن البقرة تدل على البعير!

وانتهى الأمر بان تحول الحديث إلى امور اخرى .

تحديان اثنان يواجهان الحكيم ويثقلان عليه: الأمير فنر ووداد. وإذا كان يواجه تحدي الأمير مع الآخرين، وبجوّ من الحماس والاصرار، ويمتلىء ثقة ، في لحظات معينة ، بامكانية النصر ، فإنه وحده يواجه وداد ، أو بالاحرى لا يعرف كيف يواجهها . وإذا كانت هناك انواع من المعارك يمكن كسبها مع الزمن ، فإن الزمن لا يعمل لمصلحته ، ولا يترك له فرصة للتفكير الهادىء المتوازن .

ووداد تلك الدجاجة الخائفة في السنوات الأولى من الزواج ، والتي لم تكن تجرؤ على مواجهة نظرات الحكيم أو تعليقاته اللاذعة، وتغرق في صمتها كما تغرق السلحفاة في قوقعتها، أخذت بالتغير ولداً بعد آخر. فغزوان انبت لها جذوراً ، وحامد وكمال انبتا لها جناحين ، أما حين جاءت سلمى ، خاتمة العنقود، فقد أصبحت ترفرف بالفرح، وكان يمتلىء البيت بضحكاتها الرنانة ، ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلّق ، وعندما تدفقت الاموال اصبحت امرأة من نوع مختلف .

لم يلتفت الحكيم إلى التغير الذي كان يحصل ويتراكم سنة بعد اخرى ، إذ كان مشغولاً ، أكثر من ذلك ، بمشاريعه ثم بأفكاره ، ولأنه لم يكن يقضي إلا اوقاتاً قصيرة ، وغالباً ما تمتلىء بالدعوات والبهجة وتوزيع الهدايا والوصايا ، فلم يلاحظ ، إلا متأخراً ، المزاج الحاد المترافق مع الصداع والمرض ، الذي يستبد بوداود بين فترة وأخرى. عزاه إلى الغربة ، وكان على يقين أن الزمن وحده كفيل بمعالجته. وغرق مرة اخرى بهموم الحياة وركضها المجنون ، فلم يفطن لوداد إلا كما يفطن الانسان لنبتة بدأت تذوي ، فيلجأ إلى ادويته أو

إلى ذلك الدلال المبالغ فيه ، فيغدق عليها من الهدايا الكثير ، ويقدم الوعود أن يكون صيف هذه السنة أفضل من كل الأصياف الماضية . وحين ترضى وداد وتؤخذ بالهدايا ، أو حين يترافقان في سفرة ، مثل تلك التي ذهبا خلالها إلى الولايات المتحدة لزيارة غزوان ، فإنهما يتحولان من جديد إلى عاشقين لا يملّ الواحد منهما الآخر في الليل والنهار، بل أكثر من ذلك تتحول وداد إلى امرأة من نمط مختلف، فتعطي الكثير، وتصبح أكثر حناناً، وأقل عرضة للمرض أو لتعكر المزاج .

حتى في الفترة الأخيرة ، سواء عندما دعا السلطان أول مرة إلى بيته ، أو عندما دعاه للمليحة ، وما تخلل الاستعداد للدعوتين من بكاء وداد ومرضها ، فقد اعتبره نتيجة التعب أو القلق . وأثناء الاستعداد لزواج سلمى وما رافق ذلك من الحدة والمخاوف، فقد اعتبره نتيجة الرهبة ومداهمة الوقت، خاصة وأن شبح السلطان كان يخيّم مثل ظل كثيف لا يعرف احد كيف يداريه أو يسترضيه . وكان الحكيم على ثقة اكيدة أن الراحة بعد التعب والانتظار ، وفي المانيا بالذات ، سوف تجعل ما سبقها ذكرى بعيدة ، خاصة حين ينضم إليهم ، ويقضي اسابيع طويلة في حالة من الاستجمام الكامل بعيداً عن موران ومتاعبها !

الخلافات الماضية كلها لا تعني شيئاً ، ولا تستوقف الذاكرة الا لحظات قليلة ثم تتوارى ، ازاء ما بدأ يحصل في بادن بادن . فالسلطان الذي بدا انيساً ودوداً خلال الأيام الأولى، وقدم لوداد وسلمى هدايا تفوق التصور والخيال، جعلتها تصرفاته تغبط نفسها على هذا الزواج ، لكن ما لبث أن غرق في جو غامض ، إذ سيطر عليه الصمت وتحول ليله إلى نهار ونهاره إلى ليل ، كما عافت نفسه الأكل فجأة ، وإذ استغربت وداد وسألت نفسها ثم تساءلت ، فلم تستطع الوصول إلى اية اجابة . حتى وهي تحرّض سلمى على أن تسأله ، ان تستغل لحظات الاشراق ، وفي الفراش بالذات ، فلم تجرؤ أي منهما على السؤال ، وظلتا كذلك إلى أن جاء الحكيم !

لم تكد وداد ترى الحكيم حتى خافت . وعندما سمعت بعض ما حصل لم

تفهم ، أما حين فهمت فقد اصيبت بالذهول والصمت ، ولما استوعبت تماماً ما وقع غرقت في البكاء خلال اليوم الأول واليوم الثاني ، ثم أصبحت بعد ذلك امرأة لا يعرف أحد كيف يعاملها أو كيف يتعامل معها ، أكثر من ذلك تغير شكلها، خاصة العينين، اصبحت شاحبة، معادية، واتسع بياض العين مع تقلص البؤبؤين وبروزهما .

قالت للحكيم بعد أن خلّفت البكاء وراءها وقررت أن لا تبكي أكثر مما فعلت :

- هالدربكة كلها ما كانت لازمتنا !

وحين نظر إليها بتساؤل واصلت الهجوم :

- ونحن ما جينا لهون حتى نحبس أو نموت طقيق .

ودون أن يفارقه هدوؤه تساءل :

- خير . . خير يا ام غزوان ؟

- لا تسوي حالك ما بتعرف .

رد بحدّة وكأنه يدافع عن نفسه :

- فهمينا اولاً ليش لابسة وجهك على المقلوب ، وشو اللي صار في الدنيا ؟

- مية مرة قلت لك : هالجيزة مابتناسبنا وما هي إلْنا ، لكن حضرتك اذن من طين واذن من عجين ، ولازم تصاهر الملوك والسلاطين .

قالت الكلمات الأخيرة بسخرية لا تخفى ، بل كانت اقرب إلى التعريض . ردّ بحدّة:

- اسمعي يا وداد: احنا ربنا طاير، فالله يخليك لا تزيدي مصايبنا.

- أي والله الك حق تحكي!

- أي نعم يا ستي ، الي حق ونص . . .

وبعد قليل :

- لحد امبارح كنت طايرة من الفرح ، وما اعترضت بكلمة واحدة !

- انا ؟

- اي نعم ، انت يا ستي !

- غلطان .

ضحك بسخرية في محاولة للدفاع ، تابعت :

- لو سمعت كلامي كان ظلينا بعيدين ، ولا كان شفنا ملوك وسلاطين !

ضحكت بتحدٍّ وقالت برخاوة:

- ولا كان صاهرناهم ولا ناسبونا .

- انت غلطانة يا وداد .

وتغيرت لهجته :

- لان كل شيء كان بشورك وبالاتفاق معك .

وتغيرت اللهجة ، اصبحت ساخرة متحدية :

- وكانت ضحكتك للسما، وما كنت عاطية فرحتك لحدا.

- دمعتي كانت قنطار وما كنت انام لا في الليل ولا في النهار . . .

وبعد قليل :

- حاطة ايدي على خدي واسأل حالي : منين الله جاب لنا هالمصيبة ؟ شو جابنا على الملوك والسلاطين ؟ وشو بدنا بها الشغلة ؟

- الحق معك يا ام غزوان ، انا الغلطان والحق عليّ !

- قول انا اللي غلطانة ؟

- ابداً . . استغفر الله ، انت ما غلطت أبداً!

- عم تتمألس ؟ بدك تضحك عليّ !

- اعوذ بالله .

وانتهت الجولة الأولى دون انتصار لأحد الطرفين ، لكن خيمت الكآبة على الجناح الغربي من القصر ، حيث كان ينزل الحكيم وزوجته ، أو حيث كانت تنزل وداد ثم جاء هو ، واصبح واضحاً تماماً للحكيم ان المعركة مع وداد لن تقل ضراوة وصعوبة عن المعركة مع فنرا!

ما كادت ايام تمضي ، وهي تحارب الجميع بنظراتها وصمتها ، حتى انفجرت مرة اخرى ، وكانت رغبتها عارمة هذه المرة لأن تغادر فوراً القصر . اكثر منّ ذلك فكرت أن تغادر بادن بادن عائدة إلى موران .

إذ ما كادت احدى السهرات تنقضي مع السلطان ، بعد اجتماع طويل بعدد من المرافقين ، تقرر نتيجته أن يعود هؤلاء إلى موران لكي يبدأوا اتصالاتهم ، وكي ينقلوا رسائل شفوية إلى آخرين ، وان يطلبوا منهم الاستعداد ، «لأن المعركة الفاصلة ستكون قريبة» ، بعد هذه السهرة ، وما كاد الحكيم يتسلل إلى الفراش ، دون ان يحدث ضجة ، ودون أن يشعل النور ، مستعيناً بضوء الممر ، ما كاد يتسلل كقط إلى جانب وداد ، وقبل أن يستقر في فراشه ، حتى جاءه صوتها في الظلمة، ويبدو أنها راقبت هدوءه وحركاته واكتشفت رغبته في النوم :

- ضميرك مرتاح وجاي حتى تنام ، ولا كأنه في مشكلة !

نظر إليها في الظلام وقد فوجيء بهذا الصوت الصافي الواضح ، وكأنها كانت تنتظره لكي تقول له ما قالته .

هز رأسه في الظلمة اكثر من مرة بنوع من الأسف الحزين ، وكأنه كان يتمنى أن يجدها نائمة أومشغلة بقضية أخرى. تابعت دون أن تقيم وزناً لأفكاره وعواطفه :

- راح اقتل نفسي واسوي لك فضيحة .

- خير انشاء الله ، قالها بسخرية ، كل يوم لك قصة؟

- حضرتك سويتنا قصة ، وما ضلّ احد الا وحامل قصتنا وداير ، وتعالوا تحملوا وداروا .

- طيب ، طيب ، اجّلي كل شيء للصبح ، والله كريم !

وجر اللحاف بقوة وغطى رأسه ، في محاولة لأن يجبرها على النوم . وللحظة ظن أنه نجح في ذلك ، لكن حركتها في الظلمة جعلته يتوجس ، واشعال النور جعله يتوجس اكثر ، أما حين سحبت اللحاف بتلك الشراسة ، وتلك الوقفة المتحفزة ، وقد امتلأت عيناها بالشر ، فقد اصبح على يقين أن الامور لن تنتهي على خير . ولذلك حاول أن يذيب غضبه بابتسامة حزينة ، تكوم وسط السرير وسألها بطريقة ابوية :

- فهميني ، يا حبيبتي ، ليش معصّبة ومترفزة ؟

- وتسأل ؟

- ما لي حق اسأل ؟

- اي والله لك حق ، تقتل القتيل وتمشي بجنازته !

- بس نوريني يا حبيبتي ، يا عيني .

- لا تطولها ولا تقصّرها ، هذي الساعة لازم اترك ، لازم تلقى لي مكان غير هذا المكان .

- يا وداد ، يا حبيبتي ، نامي ، اجلي الموضوع للصبح ، وما بصير الا اللي يرضيك .

- ابدا ، روحي طقت وراح اموت .

انزل رجليه ، اقترب منها كثيراً ، جذبها فقاومت ، جذبها أكثر واجلسها إلى جانبه ، جلست بتثاقل واخذت تبكي . بكت بحرقة وبصوت عالٍ . ضمها إلى صدره ليهدئها وليخفف من صوتها فلا يصل إلى الجناح الآخر من القصر . احس أنه حزين كما لم يكن هكذا من قبل . ماذا يفعل من اجلها وكيف يتصرف ؟ وهي ، لماذا اصبحت بهذا الشكل ؟ كان حائراً لا يعرف

كيف يفسر ما يرى ولا يجد له سبباً . وكانت كلما هدأت قليلاً أو كلما تراجع صوتها ، تجدد بكاءها وتجعل له جرْساً حاداً وكأنها تتعمد أن يصل إلى الجناح الآخر ، الشرقي ، من القصر .

بكثير من الصعوبة ، ومع حركات المداعبة ، والوعود الكثيرة أن يفعل ما يرضيها ، اخذت تهدأ تدريجياً ، اصبح بكاؤها شهقات تعلو وتتراجع بين لحظة وأخرى ، الدموع الصغيرة المنحدرة من العينين تمتزج بالكحل بالعطر ، وهو يحاول كقطة وبمسكنة أن يجفف الدموع ، أن يلعقها ، كانت مالحة ولزجة ، وكانت تثير فيه رغبة التقيؤ .

لأول مرة ، منذ وقت طويل ، يشعر أن حياته منذ البداية وحتى هذه اللحظة تافهة ، عديمة المعنى ، وان ما فعله طوال عمره لا قيمة له ابداً ، بل ويثير اشمئزازه وكراهيته . أكثر من ذلك يشعر أن خلافه مع وداد ، أو اختلاف وداد عنه ، وحده الشيء الصحيح . إنها امرأة شقية ، وهو سبب شقائها . لم يمنحها الحياة التي تستحقها ، لم يمنحها الحب الذي ملأ قلبه . كان يؤجل ذلك باستمرار ، وكان يخاف أن يبوح بما يعتمل في قلبه . الآن يبدو له كل ما فعله ، وكل ما عاشه مجرد خطأ كبير ، وكان يكابر ويواصل الخطأ ، كأنه سيجد الصواب في نهاية هذه السلسلة من الاخطاء .

حين تعبت ومالت عليه ، شعر فجأة انه يحبها أكثر مما يعترف لنفسه ، وانه يريد أن يكفّر عن اخطائه كلها .

مددها بهدوء في السرير ، سحب اللحاف عن الارض ووضعه فوقها ، اطفأ النور وانزلق إلى جانبها .

كانت دافئة أكثر من اية مرة سابقة . للحظة ظن انها مريضة ، وان المرض سبّب ارتفاع حرارتها. استبعد الفكرة وجعل يده تنزلق تحت ظهرها ، احتضنها برقة ، تنبهت وتحركت قليلاً . اقترب منها ودفن وجهه في عنقها وزفر ، تحركت اكثر من قبل ، وكأنها بطريقة اختبارية تحاول الابتعاد . زفر مرة أخرى في اذنها مباشرة ، انّت وارتعشت ، تأكد أنها تستجيب له . اقترب اكثر واحتضنها بقوة ، تحركت لتعطي لجسدها وضعاً ملائماً . عضّ شحمة

الأذن ، هزّت رأسها وتلوّت . عضها مرة أخرى ، قالت وهي تستدير نحوه :

ـ وجعتني ، اخس عليك !

ـ راح آكلك ، لسّه ما شفت شي !

ـ ما فيك ، ما بتقدر !

ـ راح تشوفي بعينك

حاولت أن تبتعد وتقترب، تحرّك، طوّقها، قالت بطريقة مغرية:

ـ الوقت متأخر ، خليها لبكرة !

ـ اليوم وبكرة . . ضحك : وكل ليلة وكل يوم!

ولا يعرف هو كيف تعرّى وكيف عرّاها ، فعل ذلك بطريقة اقرب إلى السحر ؛ وكانت استجاباتها خجولة بطيئة أول الامر ، لكن ما ان دب الدفء ، وما ان احتك الجسدان حتى تحولت بسرعة إلى جنون . كانت تنهشه ، تعض كتفه ، تنزلق ثم ترتفع كالدرفيل . كانت تبكي وتضحك كل لحظة ، ولا تعرف كيف تعبر عن فرحها وغضبها . والحكيم الذي يصهل ويهمهم ويحرّض بوعي حاد خلاياه كلها لكي تستجيب ، يجد نفسه كقط عجوز يقفز ، يرتفع وينخفض ، حتى إذا حانت تلك اللحظات المجنونة كانت وداد تموء وتتشبث بكتفيه مثل الغريق الموشك على الهلاك .

ويمتد صمت آخر الليل ليعمّ الجناح الغربي من القصر اليوم التالي كله، وينصرف الحيكم الى الخصم الآخر. يقول لمناور المزعل الذي سيكون طليعة المسافرين العائدين :

« ومن يوم وصولك ، يا شيخ مناور ، تتصل بمطيع ، ويجب أن يكون الحديث بينك وبينه على انفراد ومواجهة ، وتبلغه رسالة قصيرة : الحكيم يريدك ، ولازم تجي ، والافضل أن لا تكون وجهته المانيا مباشرة، يمكن أن يأتي إلى سويسرا ومنها إلى هنا . وقل له ان كل حجة غير مقبولة ، وللاهمية » .

ويهز مناور المزعل رأسه دلالة على فهم الرسالة واستعداده للقيام بإبلاغها فوراً . يلتفت الحكيم إلى السلطان الذي كان ساهماً وبعيداً ، ويقول له :

ـ إذا جاء مطيع ، يا صاحب الجلالة ، يمكن أن نأخذ صورة كاملة ودقيقة عن الوضع ، وعلى ضوئها نضع الخطة المناسبة .

وتخرج همهمة من فم السلطان ، همهمة غير واضحة ، أقرب ما تكون إلى صوت الحيوان ، فيؤكد الحكيم بنبرة مختلفة :

ـ المهم ، في المرحلة الأولى ، ان نجمع المعلومات ، لأن المعلومات الدقيقة تساعدنا في وضع الخطة . . .

يقول زيد بحزم :

ـ الحق اللي تقوله يا ابو غزوان . . .

يتطلع إليه السلطان ليكتشف مدى جديته ، يضيف زيد :

ـ وإذا جا ، بالخير والسلامة ، نشوف ويش يلزم وشنهو اللي نسوي !

يهز السلطان رأسه حزناً ، لأنه وحده يعرف ماذا تعني كلمات زيد . يتابع الحكيم محذّراً مناور المزعل :

ـ ويلزم يا شيخ مناور أن حماد ما يدري !

يهدر صوت السلطان :

ـ اه على اللي يجيب لي حماد . . .

وتتغير اللهجة ، تخرج من اعماق الصدر :

ـ والله . . . والله إذا ظفرت به ، إذا مسكته يدي لاخليه يشتهي الموت ويتمناه ، ويقول : ليتني لم أولد أو لو كنت نسياً منسياً .

ويخيم الصمت، تسيطر صورة حماد . تملأ مخيلة الجميع ، يتذكر السلطان هذه الصورة ، يقول لزيد ، لكنه يعني الحكيم :

- تذكر ، يا زيد ، أول ايامه في القصر «يا وليدي انت واحد منا ، تعرف ابوك ونعرف عمك ، اجاويد وما مثلهم ، وانت اللي الله يقدّرك عليه» ، وراح يوم والثاني وخذ يا حماد ، وموافقين على شورك يا حماد ، واللي تقوله يا حماد ، ويعدين هذا اللي طلع من حماد !

ويزفر بحرقة، يغلف وجهه حزن قاتم، يود لو يرى حماداً لحظة واحدة، لو رآه لشقه بنظرة إلى نصفين ، لجعله يذوب كما يذوب الملح في الماء . قال يواصل تعريضه :

- وانت ، يا ابو غزوان ، تذكر شلون كان حماد !

- اي والله اذكر يا طويل العمر .

- دنيا ما بها امان !

- بس يجي يوم يتحاسب كل واحد عن افعاله يا طويل العمر .

هكذا يرد زيد ، فيفهم كل واحد أكثر من معنى . وحين يهمّ السلطان بالنهوض يقول لمناور ، ويريد أن يفهم ما يعنيه :

- تعال معي يا مناور ، عندي وياك كلمتين .

وحين يبتعد الجميع ، تاركين للسلطان ان يتحدث مع مناور ، يتطلع كل واحد إلى الآخر، ولا تفهم هذه النظرات ابداً ، هل هي نظرات تساؤل ؟ اتهام ؟ انتظار ؟ يقول زيد ليعطي للنظرات مساراً لا يخطىء :

- يجيء يوم يا جماعة وكل واحد وما قدّمت يداه .

وبعد قليل ، وفي جو الصمت ، يضيف بتحدٍّ ساخر :

- ويا ما روس راح تطير !

في اوائل حزيران ، ولثلاثة ايام متوالية ، بدأت تصل إلى القصر سلال ورد كبيرة ، ومع كل سلة بطاقة صغيرة : «مع تحيات هانس أورلخت».

السلة الأولى لم تلفت النظر . أكثر من ذلك اعتبر زيد وصولها صدفة أو بطريق الخطأ. السلة الثانية تحدث زيد بشأنها مع السلطان ، لانها وصلت بنفس الطريقة وبنفس الساعة : سيارة سوداء كبيرة تقف في العاشرة ، يهبط منها اثنان بملابس سوداء ، اقرب ما تكون إلى ملابس الجنود ، يتعاونان على انزال سلة الورود ، يقدمانها مع التحيات ، ويغادران .

السلة الثالثة كان الجميع بانتظارها ، ولم يبق احد في القصر الا توقع وانتظر ، وحين وصلت في العاشرة تماماً قال الحكيم يحدث السلطان :

- المسألة اكثر من مجرد هدية !

قلب السلطان شفته دلالة عدم المعرفة ، وظل ساهماً مفكراً. قال الحكيم :

- إذا كان للرجل علاقة بالحكومة أو الأجهزة، فلا بد أن تكون الحكومة الالمانية قد غيّرت موقفها مما حصل في موران ، وتريد أن تشعرنا بذلك بطريقة غير مباشرة .

وتغيرت لهجته :

- في أوروبا، يا طويل العمر ، يحمّلون الورود والأزهار معاني كثيرة ، ويعتبرونها رسلاً بين الناس ، ولكل مناسبة ، ولكل حالة ، ورود تعبر

عنها ، سواء بالوانها أو طريقة تقديمها أو . . .

سأل السلطان بفرح وسخرية معاً :

- وصاحبنا هذا ما عساه يريد يقول ؟

- إذا لم اخطىء في فهم الرسالة ، فإنه يعبّر عن المودة !

- ومنين عرفنا ؟ ويش درّاه بنا ؟

- يا صاحب الجلالة . . .

وضحك الحكيم قبل أن يضيف :

- انكم ، يا صاحب الجلالة ، معروفون في جميع انحاء العالم . . .

قاطعه السلطان وهو يبتسم :

- وما تذكّرنا هو أو غيره الا اليوم ؟

- مثل ما ذكرت لك يا صاحب الجلالة : إذا كانت للرجل علاقة بالحكومة ، فإن هذا هو موقف الحكومة ، تريد أن تعبّر عنه قبل اجراء اية اتصالات ، وربما للاعتذار ايضاً عن الموقف الذي بدر منها خلال الفترة السابقة .

وبعد قليل وبنبرة جديدة :

- ربما كانت المعلومات السابقة عند الحكومة الالمانية ناقصة أو خاطئة ، وجاء من يقول لها كيف تتصرف لئلا يستمر الخطأ .

لأول مرة يمتلىء القصر بتوقع مرتاب، أن شيئاً ما على وشك الحصول، لا أحد يدري ما هو وما إذا كان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. أما اسم هانس أورلخت فقد أصبح مألوفاً جداً بالنسبة للحكيم. للحظات تصور أنه عرف هذا الشخص، أو بالاحرى عرف واحداً بهذا الاسم. حاول أن يتذكر متى كان ذلك، وما هي ملامح ذلك الشخص، لكنه لم يستطع أن يواصل، إذ اختلطت الأشياء والملامح والأسماء، اختلطت وتداخلت. قال في نفسه: «يبقى العالم صغيراً، وتبقى الأفعال الطيبة تذكر بأصحابها حتى لو مرّ الزمن!».

عصر اليوم الثالث رّن الهاتف . كان المتكلم هانس اورلخت ، وكان الحكيم على الطرف الآخر . لأول وهلة بدا الصوت للحكيم مألوفاً ، انه يعرف صاحبه تماماً ، ولولا تلك اللهجة الشمالية المترفعة ، رغم الود ، لتصرف بشكل آخر ، لكن في لحظة معينة تريث وفضل الانتظار .

بعد أن قدم هانس اورلخت تحياته واحتراماته ، صمت قليلاً ثم طلب أن يحدّد له موعد للقاء السلطان . كاد الحكيم أن يطلب منه المجيء فوراً ، لكنه تردد، ثم فكر أن يطلب منه المجيء في أي وقت يشاء، لكنه تردد أيضاً ، فسأله عن صفته والغاية من الزيارة. كان السؤال شديد التهذيب، ومع ذلك أحسّ أنه يضع أمامه مجموعة من الحواجز، وللحظة ندم ولام نفسه أنه فعل ذلك. أما حين أجاب هانس أنه سيوضح أسبابه في اللقاء نفسه، فقد اعتبر الحكيم سؤاله حكيماً وضرورياً، وحين ألحّ يسأله من جديد ما إذا كان الأمر مهمًّا وعاجلاً أم أنه يحتمل التأجيل، فكان جواب هانس مع ضحكة لا تخلو من مغزى :

- حين نلتقي ستتوضح كل الأمور !

حدد له الحكيم ، بعد تشاور قصير مع السلطان ، الخامسة من عصر اليوم التالي .

اربع وعشرون ساعة من الانتظار والتقدير والقلق والاتصال مع السفارة في بون ، ومع موران، دون أن تتضح اشارة يمكن أن تقود إلى فهم ما يحصل ، ودون أن تعطي فكرة عن شخصية هانس اورلخت ، أو الغاية من الزيارة . وإذا كانت العاشرة من صباح اليوم التالي جعلت جميع من في القصر ينتظر ويتوقع ، فقد مرت دون أن يصل الورد ، ودون أن يحدث خلالها شيء ، ولقد ولد ذلك لدى الكثيرين القلق وجعلهم يتساءلون ، ومع ذلك لم يقلق الحكيم ولم يتساءل ، لان الرجل ذاته سيكون هنا ، امامه ، بعد بضع ساعات. وما لم يستطع فهمه من خلال سلال الورد سيفهمه من فم الرجل مباشرة ، وسيعرف الاسباب التي دعته لان يكون كريماً هكذا ولان يتصرف بهذا الشكل .

قال السلطان ، وهو يتناول الغداء مع الحكيم وزيد :

ـ جيّة صاحبنا اليوم ، يا جماعة الخير ، ما هي لله ، لا بد يكون وراها شي .

رد زيد بسرعة وهو ينظر إلى الحكيم :

ـ حتى ورده ورياحينه ما هي لله يا طويل العمر !

ابتلع الحكيم اللقمة بسرعة ورد :

ـ اكيد المسألة ما هي طبيعية ، ولازم يكون وراها شيء ، واعتقد أن وراها الحكومة الالمانية ، خاصة بعد الاخطاء التي ارتكبتها .

كاد يذكر ، مرة اخرى ، تأخرها في اعطائه سمة الدخول ، وكاد يذكر زيارة ممثل وزارة الخارجية ، لكنه آثر هذه الصيغة العامة : قال زيد وهو يهز رأسه بسخرية :

ـ لو كان عنده سالفة زينة كان جماعتنا خبرونا قبل ما يخبرنا الغريب !

قال السلطان في محاولة لان يستبقي بعض الأمل :

ـ الغايب سالفته معه ، يا زيد ، إلى أن يحضر .

ـ ننتظر ونشوف !

هكذا رد زيد وهو يتطلع إلى الحكيم ، ثم سأله :

ـ وشنهو قولك يا ابو غزوان ؟

ـ مثل ما قال طويل العمر ، الغايب سالفته معه .

وبين انتظار هانس اورلخت والاستعداد لهذه الزيارة ، وتقدير ما يحتمل أن يترتب عليها ، انقضت ، الساعات المتبقية ، وكانت طويلة ، مشحونة بالقلق والترقب .

في الخامسة تماماً وصلت سيارتان : سيارة هانس اورلخت وسيارة الورد ، ومثلما انزلت سلال الورد في الأيام الماضية ، انزلت عصر هذا اليوم ، ولم

يعرف الحرس هل يتسلمون الورد قبل أن يدخلوا الضيف أم العكس ، لان لا احد في القصر ، ذلك اليوم ، لم ينتظر ولم يتوقع .

حين ادخل هانس اورلخت إلى القصر ، إلى غرفة الاستقبال في الطابق السفلي ، كان السلطان وزيد والحكيم في غرفة مجاورة . كاد السلطان يعتذر عن لقائه في آخر لحظة ، لانه لن يفهم منه شيئاً ، لكن اصرار الحكيم على أن يتم اللقاء ، ويمكن أن ينتقل هانس إلى حيث يجلس جلالته ، على أن يلتقي به الحكيم قبل ذلك ، جعله يوافق .

خلال الدقائق العشر ، وهي الفترة التي بقي فيها الحكيم مع هانس على انفراد ، لم يستطع أن يفهم بوضوح دوافع الاتصال ثم الزيارة ، لكنه ، بالمقابل ، ارتاح للرجل : كان ودوداً مهذباً ، ولم تفارق الابتسامة وجهه . وكان لبقا حين سأله مجدداً عن هدف الزيارة . رد وقد اتسعت ابتسامته :

ـ لن أخفي عنك : قضايا تهم جلالته .

وبعد قليل وبمودة:

ـ وسوف تسمع كل شيء بنفسك !

بعد قليل ، وهانس اورلخت بين يدي السلطان ، وبعد كلمات المجاملة ، وقد سَرّ الحكيم أنه لم ينس الالمانية ، إذ كان يترجم بين الطرفين براحة ، قال هانس اورلخت :

ـ عرفت بزيارتكم ، يا صاحب الجلالة ، قبل وصولكم باسابيع ، وقد كان هذا مصدر سرور شخصي بالنسبة اليّ . ورأيت جلالتكم لحظة وصولكم إلى بادن بادن ، وقد سررت بذلك اكثر من قبل ، وكدت اطلب موعداً لزيارة جلالتكم خلال الأيام الأولى ، لكن الاحداث التي وقعت في مملكتكم جعلتني أؤجل ذلك .

صمت قليلاً تعبيراً عن الحزن أو الحرج ، ثم تابع :

ـ وقد يكون من المناسب أن اذكر لجلالتكم أن اجدادي ، من ناحية والدتي ، كانوا ملوكاً لبروسيا ، ثم بعد الاحداث التي عصفت بالمانيا في

القرن الماضي ، وتغير الاوضاع والنظام في هذه البلاد ، جعلت العائلة تتفرق ، ولم يبق سواي في هذه المنطقة .

للحظة بدا للحكيم أن الحديث غير مناسب ، إذ صدرت عنه اشارة ادركها هانش . تابع الرجل، بعد أن ابتسم استعداداً للدخول في الموضوع :

- في مثل الظروف التي تواجهون ، يا صاحب الجلالة ، اقدّر وافهم انكم قد تحتاجون إلى اشياء كثيرة ، ولقد جئت لكي اضع نفسي بتصرف جلالتكم ، ويمكن أن افيد جلالتكم في عدة أمور.

تطلع السلطان إلى الحكيم وتطلع إلى زيد . كانت نظراته بين الارتياب والتساؤل . ماذا يريد الرجل ؟ ولماذا جاء ؟

خيم الصمت فترة غير قصيرة . لم يكن احد يعرف ماذا يجب أن يقال . أكثر من ذلك شعر هانس بالحرج، إذ قدّر انه لم يُفهم. تبادل مع الحكيم ، بصوت منخفض ، بضع كلمات ، سأله ما إذا كان واضحاً ومفهوماً ، أم يتطلب أن يشرح ويوضح أكثر . التفت الحكيم إلى السلطان وإلى زيد ، سأل بحرج :

- هل ترغبون بتوضيح أي امر يا صاحب الجلالة ؟

- حنا ما رحنا يمّه ولا سألناه، هو اللي جا ، وما فهمنا مقصده او شنهو اللي يريده .

قال زيد بخبث :

- اللي بيبه بعد ما سولف به يا طويل العمر !

قال السلطان بارتياب :

- منهو اللي دزه علينا ؟ وشنهي علاقته بالحكومة؟

- ومن هو اللي يثبت لنا أن اجداده ملوك وسلاطين ؟

ومع كل كلمة جديدة يقولها واحد من الثلاثة ولا تترجم يزداد حرج هانس وارتباكه ، ينقل عينيه في الوجوه ، يستقرئها، يتابع انفعالاتها .

قال السلطان وهو يدق الارض بعصاه :

- قل له ، يا ابو غزوان ، خله يعلمنا بمراده، وبعدها نشوف !

حين بدأ هانس اورلخت يشرح مرة اخرى ، كان اكثر وضوحاً : اشار إلى ان لديه شركة كبرى ، وهذه الشركة تتولى العلاقات العامة ، وبيع وشراء العقارات ، إضافة إلى فرع اساسي للاعلان وآخر للمجوهرات ، كما اشار إلى أن لشركته علاقات واسعة وقوية مع شركات في المانيا وخارجها ، وهذه الشركات تتولى اعمالاً كثيرة ، ويمكن أن تقدم خدمات لا حدود لها في المانيا وفي الخارج . كما أن لديه مجموعة مصارف تكفل اعماله وتغطيها، وأنه مستعد ، عند الضرورة ، وحين يتطلب الامر ذلك ، أن يقدم كفالات مصرفية ، تضمن حسن تنفيذ الاعمال ، وبالمواعيد اللازمة .

رغم أن الشرح الذي قدمه هانس اكثر وضوحاً ، إلا انه زاد الموقف غموضاً . قال زيد بسخرية :

- رأيي تنشده يا ابو غزوان أخاف يريد غيرنا وتوهم وجانا .

قال السلطان بطريقة متآمرة :

- اثاري الرجال بياع شرا ، وحنا ما عندنا اللي نبيعه أو اللي نشريه.

- وإذا كان لكل من يبيعه أو يشتري منه يدزّ ورد وريحان ظني ان ربحه يروح بخسارته ، ويطلع مثل معايد القريتين!

هكذا علق زيد ولم يستطع أن يخفي ابتسامته.

قال الحكيم مخاطباً السلطان :

- مثل هذه الشركات موجود بكثرة في أوروبا يا طويل العمر، وهذه الشركات تعرض خدماتها على الحكومات والجمهور، ولا تلزم أحداً بشيء. . .

قال السلطان بسخرية ونفاد صبر.

ـ حنا بدبريتنا يا أبو غزوان ما يعنا ولا شرينا، فخله يدوّر غيرنا!

رد الحكيم بطريقة فخمة:

ـ من رأيي يا طويل العمر أن تسأله إذا كانت لشركته علاقات بالصحف، لأن الاعلام أساسي جداً، ويمكن أن يساعدنا كثيراً.

كانت هزات رأس السلطان بين الحزن والموافقة. وحين تحدث الحكيم مع هانس أورلخت يسأله ما إذا كانت لشركته علاقات بالصحافة والنشر، ويمكن أن تساعد في نشر بعض البيانات السياسية، أجاب هانس أن لشركته علاقات مثل هذه، ورغم صعوبة نشر بيانات سياسية، إلا بموافقة الحكومة، إلا أنه سيبذل جهده، وسوف يحصل على أفضل العروض.

رغم السخرية وخيبة الأمل فقد استطاع هانس أورلخت أن يبيع للسلطان خمس ساعات يدوية ، اثنتين منها نسائية ، وعقداً من الألماس، وعرض على السلطان أن يشتري له قصراً كان لاحد الملوك السابقين، كما ابدى استعداده لترتيب رحلة لجلالته يتجول خلالها في المانيا من اقصاها إلى اقصاها . واكد اخيراً انه سيكون حاضراً لتقديم خدماته لصاحب الجلالة حين يطلب منه ذلك ، ولم ينس أن يلتقط لجلالته عدة صور ، كانت احداها على الشرفة ، وكان يقف إلى جانبه !

عند الباب الخارجي كان وداع هانس اورلخت لزيد والحكيم حاراً ، واكد مجدداً انه سيقوم بزيارة القصر وتقديم الاحترام لصاحب الجلالة بين فترة واخرى .

قال زيد للحكيم وهما يسيران في الحديقة باتجاه الشرفة التي يقف عليها السلطان :

ـ ظني يا ابو غزوان أن الرجال حصّل ثمن ورده وزود!

وضحك بسخرية واضاف :

ـ وبعد اليوم ما راح يدز ورد وريحان !

عندما كانت سيارة هانس اورلخت تنعطف لتدخل إلى الشارع العريض ، وكانت تُرى من شرفة القصر الامامية ، حيث وقف السلطان وإلى جانبه الحكيم وزيد ، قال السلطان موجهاً الكلام إلى الحكيم ، وسخرية اقرب إلى المداعبة :

ـ اثاري صاحبك ، يا ابو غزوان ، بياع شرا ، وما عنده سالفة غير البيع والشرا !

قال زيد وهو يقهقه :

ـ عمي يا بياع الورد .

شاركهما الحكيم الضحك ، لكن بغيظ. وفي تلك الليلة ، والأيام التالية ، أصبح هانس اورلخت مادة للسخرية والتندر. فزيد لا يشير إليه إلا بعمي يا بياع الورد ، والسلطان الذي سمع محاضرة الحكيم عن مغزى الورود ومعانيها ، وفي اللحظات التي تمتلىء روحه بالاسى ، لا يتردد في أن يشير إلى بعض ورود الحديقة ويقول : «هذا ورد الحكومة . . وهذا ورد القصابين» أو يقول: «هذا ورد الحكومة الالمانية وهذا ورد الانكريز». والحكيم الذي يضحك، ويبالغ بعض الاحيان ، لكلمات السلطان ومداعباته ، يبدو شديد الحنق ، اقرب إلى الغيظ حين يسمع تعليقات زيد أو تعريضه ، لكن مع ذلك يعض على جرحه ، لا يريد أن تفلت منه كلمة تكون سبباً لخلاف امام السلطان .

ما كادت بضعة ايام تنقضي حتى اصبح هانز اورلخت نفسه الشخص المطلوب ، لأنه الوحيد القادر على المساعدة وحل المشاكل !

فقبل أن ينقضي الشهر على اقامة السلطان ، وقعت احداث عديدة : جاء صاحب القصر ، وجاء مندوب عن بلدية بادن بادن . وجاء ايضاً عدد من الشرطة ، اضافة إلى حصول مظاهرة امام القصر .

فصاحب القصر اجرّ قصره «لملك وعروسه ولم يؤجره إلى قبيلة من

الفجر». هكذا قال، واظهر، للحظة، عقد الايجار. هزه في الهواء اكثر من مرة، واعاده إلى جيبه، دون الاشارة إلى اية فقرة، كما لم يشر أن السفارة هي التي ابرمت العقد، وبالتالي عليه مراجعتها. كان يهدّد أن يقيم دعوى عاجلة لاخلاء القصر والتعويض عن الاضرار الجسيمة التي لحقت به.

لما حاول الحكيم الاستفسار عن اسباب غضبه، أو ماذا يريد، اجاب انه لم يتصور أن يتحول القصر إلى هذا الشكل، وانه، حتى هذه اللحظة، لا يفهم شيئاً مما يجري حوله، كما لا يقبل أن تستمر الامور هكذا. وان المسألة تتجاوز كثيراً الجانب المادي لتطال سمعة القصر والمنطقة، وانه محرج وحائر فيما يجب أن يفعله لانقاذ الموقف أو وضع حد لشكاوى الجوار.

ويبذل الحكيم كل براعته ودهائه في ان يفهم المطالب أو الشكاوى، وصاحب القصر يهدأ لحظة ليثور في اللحظة الثانية. يرفض الاجابة عن الاسئلة الدقيقة التي يوجهها الحكيم. لا يطلب، بوضوح، زيادة الاجرة. لا يطلب اخلاء القصر تماماً. وبعد الكثير من الصخب والحدة يتلخص الامر: بشراء القصر، أو اخلائه فوراً.

بعد جهد كبير، ويومين من المناقشات، تم الوصول إلى حل وسط: يعتبر عقد الايجار مستمراً لشهر أو اثنين، على أن يرفع السعر من خمسة عشر الف مارك شهرياً إلى مائة الف، وينظر في وضع الاثاث بعد انتهاء العقد.

لقد اعتبر الحكيم هذا الحل المؤقت مقبولاً ومرضياً في الظروف الراهنة، لانه الحل الوحيد الممكن عملياً، ولانه من الصعب أو المستحيل الوصول إلى حلول اخرى في ظل الحصار والمصاعب، اضافة إلى الانشغال بامور اكثر اهمية!

ما كادت هذه المشكلة تجد حلاً، حتى جاء مندوب البلدية، مع قائمة لا نهاية لها من الممنوعات، تحت طائلة العقوبة: يمنع بصورة قاطعة ذبح اية حيوانات في القصر. يمنع ايقاد النار. يمنع الجلوس في الشارع. يعاقب على الضجيج واقلاق الراحة، كما يعاقب على التلصص وازعاج الجوار.

والحكيم بكثير من الصبر والتهذيب، وهدوء الاعصاب مع الابتسامة، يحاول الاستفسار من مندوب البلدية فيما إذا بدرت من احد مخالفات من هذا النوع، ويسأل ما إذا كان من الضروري التوقيع على الاستمارة التي قدمها إليه المندوب، فيكون الرد: ابتسامة ساخرة اقرب إلىّ الاهانة، مع كلمة قصيرة:

- انتم الآن في المانيا وتخضعون للقوانين الالمانية.

وحين اراد الحكيم أن يعرف اكثر من ذلك كان الرد اقسى من قبل:

- دائماً انتم الشرقيون تتظاهرون بالبساطة أو الغباء، لكي تتهربوا من القوانين.

وفجأة خطرت للحكيم العجوز فكرة، وتراءى له احتمال ترحيله مرة اخرى، وهذه المرة ليس وحده، وإنما معه السلطان والآخرون، عندها ستحدث فضيحة لا يعرف مداها أو نتائجها. تناول الورقة لكي يوقع. قال له مندوب البلدية:

- لا يمكن التسامح مرة اخرى، ولا يمكن السكوت!

وحين نظر إليه الحكيم مستوضحاً اضاف بحدة:

- لدينا من الشكاوي والوقائع ما يكفي لاحالتكم جميعاً إلى المحكمة، وهذه وحدها تجعلكم تقضون بقية حياتكم في المانيا، لكن نفضل لكم العودة إلى اوطانكم!

قال الكلمة الأخيرة بنوع من السخرية، وكأنها تعريض واضح يشير إلى معرفته بعزل السلطان وعدم إمكانية عودته. رد الحكيم بخشونة:

- يجب أن تعرف انك امام رجال يعرفون القوانين ويحترمون الانظمة.

- المهم أن توقع الآن...

بنظرة خاطفة تطلع الحكيم، ووقع، وبعد أن سحب مندوب البلدية الورقة وطواها قال له وهو يبتسم:

- والمهم ايضاً أن تحترموا توقيعكم وأن تحترموا القوانين الألمانية!

وعصر اليوم ذاته تظاهر الجوار :

عشرات السيارات المليئة بالشبان والشابات ، تمر امام القصر ، وكل من فيها يرتدي طرطوراً أو قناعاً ، وقد خطط عدد منهم وجوههم بالوان سوداء أو حمراء ، ومع ابواق السيارات يصرخ الشباب ويقومون باداء اشارات الاستهزاء ، ولم يتردد بعضهم في القاء زجاجات فارغة . لقد فعلوا ذلك مرات عديدة ، بين العصر والغروب .

وإذا استطاع الحكيم وزيد أن يخفيا عن السلطان مجيء صاحب القصر ، قبل يوم او اثنين ، ولم ينتبه احد لوصول مندوب البلدية ، وما دار من نقاش بينه وبين الحكيم ، لأن الحديث كله جرى بالالمانية ، وزيد الذي حضر جزءاً من الحديث ما لبث أن غادر الغرفة دون اهتمام ، أو حتى رغبة المعرفة . لم يستطع أحد إخفاء أمر المظاهرة التي جرت كما لم ستطع الحكيم أن يموهها أو ان يعطيها تفسيراً آخر .

في ذلك المساء قال الحكيم كل شيء :

- ... يا طويل العمر هذه الديرة ليست ديرتنا ، نحن هنا ضيوف ، ومن شروط الضيافة أن يكون الضيف مؤدباً...

وهذه الديرة ، يا طويل العمر ، لها قوانين ، ومن شروط الاقامة فيها أن يلتزم الانسان بقوانينها...

وهذه الديرة ، يا طويل العمر ، لها اخلاقها ، ومن شروط قبول الاجنبي أن يتخلق باخلاق اهلها ...

وكاد يستمر بهذه الطريقة ، لكن السلطان قاطعه بنزق :

- لكنا ما سرقنا ولا نهبنا يا ابو غزوان !

وضحك بسخرية واضاف :

- وما تعدينا على احد !

كاد الحكيم أن يتكلم ، لكن السلطان قاطعه مرة اخرى :

- لكن إذا طاح كبير القوم ، يا ابو غزوان ، طفيت نارهم ، وعلم الله أن نارنا طفيت ، والجماعة هنا يجربون سلاحهم بروسنا .

ضحك بسخرية اقرب إلى الحزن ، وقال بحدة :

- لكن يا أولاد الحلال، يا عباد الله الواحد، الواحد ما يجرّب سلاحه بميت، ولا يمد يده إلى مال اليتيم.

وهز رأسه بلوعة واضاف كأنه ينتقم من نفسه :

- صحيح اننا طحنا ، لكن مثل ما قالوا جماعتنا : لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة ، وهذه الدنيا مالها امان ولا لها صاحب ، مثل ما كانت لنا صارت علينا ، وباكر ما احد يعرف ويش يصير!

حاول الحكيم أن يشرح ، من جديد ، الامور . قال ان الاخطاء ، فيما إذا كانت هناك اخطاء ، من الحرس والمرافقين ، ولذلك يجب أن يراقب زيد الامور ، وان يحرص على عدم مخالفة القوانين والتعليمات ، وذكر أن مندوب البلدية أشار إلى مجموعة من المخالفات التي وقعت، بما في ذلك تقف الحرس لبعض النساء بالحصى ، أو التعرض لهن.

بعد الكثير من الحديث المتنوع والمتشعب طلب السلطان من زيد أن يكون حازماً ، وانه ينبّه على الحرس والمرافقين ، وان يعاقب المعتدين فيما إذا حصلت اعتداءات من اي نوع ، ووافق السلطان على استدعاء هانس اورلخت ، لكي يستعان به من اجل شراء القصر ، أو من اجل البحث عن مكان آخر للسكن .

وتم الاتفاق ايضاً على الاستعانة بالمحامي الذي اقترحه هانس، لمعرفة حقوق صاحب الجلالة ، مقابل الالتزامات والواجبات التي ترتبت عليه ، ولتحديد إمكانية التحرك في ألمانيا والاستفادة من الرأي العام . ورغم أن زيداً بدا مغيظاً اقرب إلى الحنق ، فقد اعترف انه سمح لرجاله بحرية كبيرة ، الامر الذي خلق بعض الاعتراضات وردود الفعل . لكن اعتبر ان الاستعانة و بعمي

يا بياع الورد وربعه » كما درجت التسمية ، « كمن يتقي الرمضاء بالنار » وطالب أن يذهب الحكيم إلى بون، وان يأتي بالسفير ، أو بأحد المسؤولين في السفارة ، من اجل ترتيب الموضوع . أما أن نكون « مطيّة للطالع والنازل ، للي يسوى واللي ما يسوى ، وان نسكت ، فالجماعة ياكلون وما يستوكلون ، يحللون وما يحرمون ، وإذا جماعتنا اخطوا فخطاهم اكبر ، وباكر تشوفون » .

لم تُجْدِ اعتراضات زيد ، إذ لم تمض بضعة ايام ، حتى اصبح هانس اورلخت شخصاً لا يفارق القصر ، وإليه يرجع في الكبيرة والصغيرة ، فقد عُيّن وكيلاً عاماً لصاحب الجلالة ، مقابل راتب شهري تم الاتفاق عليه ، تضاف إليه نسبة عن كل عملية يتولى القيام بها !

كل يوم جديد ينقضي دون أن تظهر نتائج يتعكر مزاج السلطان اكثر من اليوم الذي سبقه . لا احد يعرف كيف يتعامل معه ، أو كيف يتصرف . والسلطان نفسه شديد التقلب والتغير : يسهر في بعض الليالي إلى أن يرى شمس النهار تبزغ . ويأوي إلى فراشه ، في ليالٍ اخرى ، عند الغروب . يبدو في بعض اللحظات راغباً أن يكون الجميع حوله . وفي حالات غيرها لا يطيق حتى زيد الهريدي، وينطبق الامر ذاته على الاكل والحديث ، عدا رغبة المضاجعة ، فقد تحوّل خلال هذه الفترة إلى « حصان شبابه » كما قال زيد ، إذ كثيراً ما ترك الآخرين وصعد إلى الطابق العلوي ، وكثيراً ما سمعت وداد الصهيل والصخب . كانت تشعر أن جسدها يضطرب ، فتحاول اشغال نفسها أو الابتعاد ، لكن مشاعر اللذة لا تفارقها ، وبمرور الأيام اصبحت تخاف على سلمى ، بعد أن اصبحت مثل خرقة مبلولة ، إذ علاها الشحوب ، وبدت متعبة ، والهالات الزرق حول عينيها . أما السلطان ، رغم الهرم والتعب ، فقد ظل مثل دب مسّن ، ولم يتردد في أن يطلب من الحكيم المقويات ، كما لم يتردد في أن يطلب من شايع السحيمي استخراج كتبه لكي يقرأ له فيها أخبار النساء!

ومع هذا المزاج المتقلب تتغير الحياة ايضاً . فبعد ايام دافئة منعشة في اواخر مايس ، جاءت في نهاية حزيران ايام المطر . فجأة تتلبد السماء بالغيوم السوداء ، وتبدأ عربدة الطبيعة بالبروق والرعود الصاخبة ، ثم ينهمر المطر غزيراً سريعاً ، ومع انهماره تتولد في الصدور مشاعر الضيق والحزن ، فيصبح كل واحد من مرافقي السلطان في حالة من التوتر اقرب إلى النزق .

وبتعكر امزجة الرجال يصبحون اكثر استعداداً للحدة أو للصخب . فنزلاء الفندقين ، الذين كانوا يكتفون بالأسئلة أول الأمر ، ثم بدءوا يتساءلون ويتناقشون ، ولا يفعلون اكثر من الانتظار ، تحولوا إلى نوع آخر من البشر : عيون مليئة بالتحدي والسخرية ، خلافات لا تنتهي مع إدارتي الفندقين ، ثم تبدأ المعارك فيما بينهم . وحين نقل الجميع إلى القسم الخلفي من المقهى قريباً من البار ، تجرأ عدد منهم وشارك المترجمين بشرب البيرة أول الأمر ، ثم أصبح بعضهم لا يفيق من حالة السكر .

وعندما سافرت الافواج الأولى عائدة إلى موران ، بدا وكأن الامور اخذت مساراً يمكن التحكم به ، إذ بالإضافة إلى جمع من تبقى من المرافقين في فندق واحد ، ونقل عدد منهم إلى القصر ، بناء لمشورة الحكيم ، بعد أن سحبت الحكومة الالمانية عدداً من الحرس الذين وضعتهم في البداية ، فإن حالة الترقب سيطرت على الجميع ، إذ لا بد أن تصل الاخبار التي طالما انتظرها الجميع ، خاصة وأنه اشيع عن قرب وصول عدد من الموفدين ، بمن فيهم مطيع . أما الذين تسببوا بمتاعب نتيجة السكر ، فقد نُبِّه عليهم بشدة بلغت حد القسوة ، أن من يقبض عليه سكران فسوف يؤتى به إلى القصر ويجلد ، الامر الذي حدا بهؤلاء ، أو ببعضهم ، لان يشتروا المشروبات من البار ، أو من المخازن الكبرى ، ويحملوها إلى غرفهم ، وهناك يشربون ويسمرون ، بحيث اصبحت غرف كثيرة بارات ، أو حانات .

أما الحكيم الذي بدا متفائلاً ، أو هكذا تظاهر ، خلال الأيام الأولى ، فقد تغير . حصل ذلك ، أول الأمر ، بسبب وداد ، فحين « روضها » كما يقول لنفسه ، أو حين استرضاها مع وعود كثيرة ، كما تقول هي ، فإن سميراً « عنفص وتغير » . فبعد أن طلب مبلغاً من المال ، لكي يرسله إلى القاهرة ، لأن لديه التزامات ، كما قال ، ودفع إليه الحكيم بسرعة مع ابتسامة متفهمة ، ما لبث أن بدأ يعترض على الكثير من الافكار والاقتراحات التي يتقدم بها الحكيم ، اضافة إلى التلكؤ في انجاز الاعمال التي تم الاتفاق عليها ، واخيراً ، وقبل أن ينقضي شهر حزيران اختفى ، ولم يعرف ما إذا عاد إلى موران ، أو رجع إلى القاهرة !

حتى بدري المدلل ، الذي وُجد له مكان في المحرس ، وافردت له غرفة خاصة ، بدأ يتذمر ، ويرفض ، في حالات كثيرة، أن يقص شعر الحرس والمرافقين ، بحجة أن ادوات الحلاقة مخصصة لجلالته ، « وانه حلاق السلطان، وما هو حلاق التنكة أو السحّارة في سوق الحلال». وبدا أيضاً شديد السهوم واضح القلق، إلى أن اتصل به موظف من السفارة، عن طريق احد المترجمين، وطلب منه أن يستعد للعودة إلى موران!

وإذا كان الحكيم افترض منذ البداية أن الزمن سيتولى حل بعض المشاكل، فإن مشاكل أخرى أخذت تظهر، وأخرى تتعقد بمرور الزمن. فالاعتراض العابر الذي بدر منه في معالجة مشاكل المرافقين مع إدارتي الفندقين ، « لان همنا اكبر من هذي الولدنات ، يا زيد » ، ما كان يتصور أن هذا الاعتذار بداية حرب بينه وبين زيد الهريدي. فالعلاقات بين الرجلين ، أو بالاحرى مواقف زيد ، بدأت تأخذ منحى جديداً . اصبح يتجنب الحكيم ، او يغرق في الصمت إذا جمعهما مجلس واحد . وبدأ يشير امام السلطان بطريقة واضحة إلى دور حماد فيما حصل ، وكيف اصبح شخصاً مهماً في موران ، واسمه يتردد على كل شفة ولسان . وهو حين يذكر حماداً بالذات فلكي يحمل الحكيم مسؤولية اختياره وتعيينه. أما عندما اخذت تصل جرائد موران ، وقد تعمدت السفارة ايصالها ، وكانت تمتلىء بالاشادة والتقدير للعهد الجديد ، وكانت صور رجال العهد وتحركاتهم تملأ هذه الجرائد ، فقد توافرت مادة جديدة للتعريض بالحكيم، خاصة من قبل زيد وشايع السحيمي ثم للتحريض عليه.

ولم يكن السلطان بحاجة إلى التحريض ، لان كل شيء حوله يثيره ويحرضه . فتأخر وصول الاخبار ، مثلاً ، أو مجرد نشر صورة لمطيع إلى جانب فنر ، يعد أن عُيّن مستشاراً في القصر ، أو صورة حماد ، وهو يمنح الاوسمة لدفعة جديدة من ضباط الشرطة ، تقديراً للخدمات الجليلة التي قدموها للسلطنة والحفاظ على الامن إن اياً من هذه الامور كفيل بان يجعل ذلك اليوم جحيماً لكل من في القصر . فإذا جاءت تعريضات زيد أو سخرية شايع ، فعندئذٍ يضطر الحكيم للانسحاب ، متذرعاً بالمرض ، أو ضرورة

تناول الدواء ، أو بحجة مواصلة العمل على البيان الذي يعده « لينشر في جميع انحاء العالم » كما كان يقول! وحين تبدو مثل هذه الذرائع واهية ، أو تتكرر مرة بعد أخرى، يخفض رأسه، ويزرع عينيه في مكان، أو ينشغل بسبحته، في محاولة لأن يهرب من كل ما حوله. فيهمس زيد في اذن شايع، وهو لا يخفي ابتسامته: «سبت ابن الحرام».

الاتصالات بين بادن بادن وموران صعبة ، ويتخللها الكثير من المنغصات ، فهي مع القصر غير ممكنة ، أو تنقطع خلال اللحظات الأولى . ومع الآخرين مشوشة ومراقبة ، وكثيراً ما تدخل الرقيب مشعراً أو منبهاً الطرفين انه ينصت ويسجل كل كلمة . والسلطان الذي افترض ، أول الامر ، أن مجرد امكانية الاتصال مع موران سيحل المشاكل وينهي هذا الكابوس ، ما لبث أن تأكد من خطأ هذا الافتراض . وحين تجنب الاتصال بنفسه ، طالباً من الآخرين أن يتصلوا ، كان مجرد انتظار مثل هذه الاتصالات عذاباً لا يطاق ، إذ بعد ساعات من الانتظار ، والتأكيد مرة بعد اخرى على الطلبات ، كان يأتي الجواب : « الخطوط مقطوعة » أو « الرقم الذي تطلبونه لا يجيب » .

والسفير الذي كان يردّ بعض المرات على اتصالات زيد أو الحكيم، ويبدو، في حالات كثيرة، مهذباً وراغباً في التفهم والمساعدة، ما لبث أن أخذ يتهرب، فيجيب مرة ولا يجيب أخرى، أو يرفع صوته مدعياً أنه لا يسمع، ثم فجأة ينقطع الاتصال! وفي وقت لم يتأخر أصبحت اجابة عامل المقسم تتكرر: «سعادة السفير غير موجود» دون رغبة في أن يضيف كلمة أخرى، حول ساعة عودته. وحين سافر بعض الذين رافقوا السلطان، عائدين إلى موران، سافر هو أيضاً للتشاور، وطال بقاؤه في موران، دون أن يعرف أحد متى يعود، ودون أن يكون أحد مسؤولاً في السفارة اثناء غيابه !

وعشرات المنغصات اليومية تحدث في حدود هذه المساحة المسورة من بادن بادن ، فلا يعرف احد كيف يواجهها أو كيف يتغلب عليها .

قبل أن ينقضي الشهر ، وفي هذا الجو من الانقطاع والارتباك والحيرة

والمرض ، جمع السلطان عدداً من الرجال لكي يتشاور معهم ، ويتخذ قراراً .

كان في حالة من الضعف اقرب إلى الانهيار . لم يخف ذلك ، وما كان ليستطيع حتى لو اراد . كان بادي المرض ، وقد اضطر إلى حمل عصا ، اشتريت له على عجل، ولأن الادراج تتعب والركب ما تحمل، وترك لحيته تطول اكثر من السابق، دون رغبة في ان تقصّ او تهذب ، كما فعل في المرة الأولى . أما وجنته فاصبحت ترتجف بوتيرة اسرع ، ومن يرها لا يتمالك نفسه من الضحك لهذا الرقص الرتيب المنتظم .

في هذا الاجتماع الذي خيم عليه الحزن ، تكلم السلطان ، عكس المرة السابقة. تحدث عن الزمان وخياناته؛ عن الأصحاب وتخليهم ؛ عن الاخوة وكيف تغيروا . وتحدث عن الناس ، قال انهم يقفون مع القوي الذي يخافونه، ومع مصالحهم. كما أشار بحزن، بلغ درجة المرارة، إلى أن الحياة تغيرت كثيراً عن السابق ، ويعتبر نفسه احد الذين تسببوا في هذا التغير ، نتيجة التساهل والسماح بوصول الاجانب . وقال اخيراً :

ـ وإذا الوجدان ما صحي ، والناس ما رجعوا إلى حليبهم ، فالأيام الجاية اصعب من اللي راحت .

وقال اشياء اخرى ايضاً . وفي لحظة معينة سقطت دموعه دون ارادة ، وخيّر كل واحد من الذين رافقوه بين البقاء أو الرحيل ، « لان الله لا يكلف نفساً الاّ وسعها » واقسم انه لن يلوم احداً على اي قرار يتخذه .

حاول اكثر من واحد أن يتدخل ، أن يهدد . دق السلطان الارض بعصاه ، ورفع يده وهو يقول بحزن :

ـ يا جماعة الخير . . . حنا اليوم بديار غريبة ، بعيدين ومقطوعين ، ولو كنا بديرتنا ، بين اهلنا وعشيرتنا ، كانت الامور اختلفت . ومثل ما قلت لكم : ان الله لا يكلف النفس الا وسعها . وشوري عليكم أن تكونوا هناك ، لانكم هناك تفيدون ، وعسى أن الله يقدّرنا ويرجعنا ، وعندها الله كريم ما ننسى لاحد افضاله .

قال الحكيم ، في محاولة لان يعطي المناقشة عمقاً إضافياً :

- يجب أن يتم العمل على خطين ، يا طويل العمر ، خط الداخل وخط الخارج ، واقتراحكم أن يعود معظم الاخوة اقتراح صائب ، وارى تنفيذه دون ابطاء ، لان الموجودين في الداخل سيكونون عدة لنا وذخراً ، وسوف يقومون بالاتصالات التي تكلفونهم بها ، كما أن مجرد وجودهم هناك سوف يؤثر نفسياً .

تلفت اكثر من مرة ليرى اثر كلماته ، فلما وجدهم صامتين تابع :

- والزمن الذي نعيش فيه ، يا طويل العمر ، اوجد ارتباطاً وثيقاً بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية ، بين موران والدول الأخرى ، خاصة الولايات المتحدة ، ولذلك يجب أن نعمل على هذا الخط ، وانا واثق أن النتائج ستكون ايجابية وقريبة .

رد السلطان ، وكأنه يكلم نفسه :

- اي بالله ، والواحد معهم كأنه بحضن امه وأبوه!

قال زيد الهريري :

- امّن البزّون شحمة . . .

والتفت إلى شايع السحيمي ، وقال له بسخرية :

- ترى حقنا وصلنا يا ابو عاهد!

لكي يخفف الحكيم من وقع خيبة الأمل بعد تأخر مطيع ثم اعتذاره عن المجيء ، تذكر الكلمات التي قالها غزوان في احدى المناقشات : « تزايد أهمية السلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقال القرار من الداخل إلى الخارج، إذ كلما اصبحت موران أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار». ويتذكر أن غزوان لامه على انشغاله بالموضوعات الصغيرة، كانتخاب غرفة التجارة أو انصرافه إلى الكتابة وما شابه ذلك.

الآن تتكشف امامه الحلول المناسبة : يطلب من غزوان المجيء إلى بادن ـ بادن ، يفهم منه رأي الدوائر المسؤولة ، يتفق معه على ترتيب زيارة لصاحب الجلالة إلى الولايات المتحدة ، والالتقاء فيها بالمسؤولين ، ويتفق مع هؤلاء على كيفية العودة . هذه المرة يجب أن يكون الشخص الاساسي ، كل شيء ، في المفاوضات ، في الاتفاقات . يجب أن يبحث الصغيرة والكبيرة، أن يدقق في تقرير صيغة السلطنة التي يجب أن تكون . لم يعد يثق بالآخرين ، أو أن يكلفهم بمهام كبيرة ، عليه أن يتولى الامور بنفسه ، لانه لا يريد أن يكرر الاخطاء السابقة .

احس بالراحة والانتعاش . كان يجب أن يفكر هكذا منذ اللحظة الأولى ، لام نفسه أنه لم يفعل . قال ، وكانت الكلمات صارمة ليخفف شعوره بالخطأ : « الآن يمكن أن نملي شروطنا ، خاصة بعد أن جربوا غيرنا واكتشفوا عدم جدارتهم».

بكثير من الانفعال ، وقد تخيّر وقتاً مناسباً ، شرح للسلطان خطته ، وعرج

بثقة ، وان يكن باشارة سريعة ، على ما سمعه من غزوان ، وكيف انه اخطأ إذ لم يول هذه الفكرة ما تستحقه من الاهتمام . ثم ذكر مزايا غزوان وما اكتسبه من خبرات ، اضافة إلى العلاقات الواسعة التي نشأت له في الولايات المتحدة . وكيف انها ستفتح الابواب وتغير المعادلات كلها.

استغرب أن السلطان لم يشاركه الانفعال . كان يكتفي بالاستماع ويهز رأسه بين فترة واخرى . وحين عرض عليه أن يستدعي غزوان فوراً ، وان يتم التداول معه بهذه الخطة، قال السلطان ، وخرج صوته مسكيناً :

- تذكر يا حكيم : قلنا لغزوان أن يكون قريباً منا ويشور علينا ، لكن الله يسلمه ، ظل بعيد .
- اشغاله ما سمحت له يا طويل العمر !
- ادرى . . . ادري يا ابو غزوان !

هكذا رد السلطان ، وكان لا يخفي تعريضه، وحتى سخريته . قال الحكيم في محاولة للدفاع :

- تتذكر مسألة تسليح الجيش يا طويل العمر .. وتتذكر . . .
- اتذكر كل شيء يا ابو غزوان !
- انا من رأيي أن تستدعيه وان نتشاور معه .
- يا حكيم غزوان مثل ما هو ولدك هو ولد لنا ، ونحب نشوفه بكل وقت . . .

وبعد قليل وبحزن :

- لكن ظني أن وقت التكليم راح وانتهى !

رد الحكيم بانفعال :

- اترك المسألة عليّ يا طويل العمر ، أنا اتابعها ، وانشاء الله ما يصير إلا الخير !
- لا تتعب روحك يا ابو غزوان ، تراك تعبت وشقيت اكثر من اللازم .

- التعب ما له قيمة ، يا صاحب الجلالة ، المهم أن تصل إلى نتيجة .
- على خيرة الله .

في تلك الليلة ، وفي اليوم التالي ، ذهبت محاولات الحكيم للاتصال بغزوان عبثاً ، ولقد لعن في سره كروية الارض وفرق التوقيت مئات المرات ، لان هذه الاميركا يبدأ يومها حين ينتهي يوم الآخرين ، ويبدأ ليلها حين يُغرق النور باقي اجزاء الارض . لا يعرف متى يبدأ غزوان عمله ومتى ينتهي منه ، ولا يعرف هل هو في سان فرانسيسكو أم خارجها . وماذا لو كان مسافراً ، مثل سفراته السابقة ، إلى البرازيل أو اليابان أو إلى اماكن اخرى ؟

وعنّ له لو يسافر إلى هناك بنفسه ، أن يصطحب وداداً مثلما اصطحبها قبل بضع سنين ويسافر . سوف ترتاح قليلاً ، وسوف يتغير مزاجها ، ولا بد أن يلتقي غزوان هناك على انفراد ، ويتباحث معه ، دون ازعاج الآخرين أو تدخلهم . سوف يبحث معه كل شيء ، ويطلب منه أن يمهّد للاتصالات التي سيجريها السلطان . إن ذلك لو جرى سيختصر الكثير . ومن هناك ايضاً يمكن الاتصال بموران . سيتحدث إلى مطيع وحماد وآخرين . لن يقول لهم انه في الولايات المتحدة ، ولن يقدروا ، وربما وجد الكثيرين هناك من معارفه أو مرؤوسيه السابقين .

في اليوم الثالث ، عند الفجر ، استطاع الاتصال بغزوان . كانت لحظات متفجرة على الهاتف . صحيح أنه ظل متماسكاً حين تحدث إليه وحين سمع صوته ، أكثر من ذلك طمأنه أنه وجميع افراد العائلة بخير . لكن لم يستطع أن يتماسك حين بدأت دموع وداد تنهمر وهي تتحدث مع غزوان . احس انهما تعيسان أكثر من الآخرين ، وانهما بدّدا حياتهما في أشياء وأماكن لا طائل من ورائها . وعنّت للحكيم الرغبة أن يوقظ السلطان وسلمى ، وان يطلب منهما التحدث مع غزوان ، لكن الفكرة تراجعت حين نظر إلى ساعته ووجدها الثالثة والنصف .

تسلّم سماعة الهاتف من جديد ، كانت مبتلة من العرق والدموع ، قال لغزوان بلهجة حنونة ، لكن لا تخلو من حزم إنه يريد منه المجيء إلى بادن

بادن ، وان يكون ذلك اليوم قبل الغد ، قال هذه الكلمات وشعر أن غزوان ، في الطرف الآخر ، قد ارتبك . إذ تنحنح اكثر من مرة ، وطال الصمت الفاصل بين كلمة وأخرى. وحين اكد عليه من جديد أن الأمر يتجاوز الاشتياق والرغبة في اللقاء إلى امور اخرى ، وان السلطان يريد أن يراه ايضاً ، فقد رد غزوان باعتذار حانق ، أن لديه مجموعة هامة جداً من المواعيد خلال الأيام القادمة ، ولا يستطيع ، باي شكل من الاشكال ، الغاءها أو تأجيلها . ولما سأل من جديد متى يستطيع أن يأتي ومتى تنتهي مواعيده رد بأنه لا يستطيع اعطاء أي جواب الآن ، لكنه سيبقى على اتصال .

انتهت المكالمة بعد نصف ساعة. تبادل الحكيم السماعة مع زوجته عدة مرات ، وتغيرت لهجة الحديث عدة مرات ، لكن لم يستطع الوصول إلى نتيجة محددة . أما عندما اقترح عليه أن يقوم هو وامه بزيارته ، فقد كان رد غزوان اوضح :

ـ هذه الفكرة احسن ، واميركا كبيرة ، إذا ما التقينا بسان فرانسيسكو يمكن أن نلتقي في نيويورك أو في مكان آخر .

لم يستطع أن ينام بعد هذه المكالمة ، كان منفعلاً حانقاً ، وكان اقرب إلى التشوش ، « فهذا الغزوان يزداد بعداً واختلافاً كل يوم ، بل ويزداد غموضاً ايضاً . كيف يفكر وماذا يريد ؟ صحيح انني لا افهم افكاره ، لكنه ، كما يبدو لي ، شديد الذكاء. قد تختلف افكارنا ، وربما نتيجة فارق العمر واختلاف الاجيال ، وقد لا يفهم أحدنا الآخر بسرعة أو بسهولة، بسبب تباين التربية أو الدراسة ، ومع ذلك يجب أن ابذل جهداً اضافياً من اجل أن اقترب منه ، لكي افهم ما يقوله وما يعنيه . والكرة في ملعبي الآن ، كما يقولون ، ولذلك عليّ أن اعرف كيف اتصرف » .

لما سأله السلطان ، عرضا ، بعد بضعة ايام ، ما إذا اتصل بغزوان أم لا فوجىء بالسؤال وارتبك ، إذ رغم أنه هيأ نفسه لهذا ،وهيأ الاجابة ، فقد ظل محرجاً. راودته نفسه أن يكذب ، أن يموه الاجابة فيجعلها غامضة ، لكنه وجد نفسه يقول :

ـ اتفقنا ، يا طويل العمر ، أن اسافر انا وام غزوان إلى هناك !

فوجىء السلطان ، إذ لم يقدر احتمالاً مثل هذا . تابع الحكيم موضحاً :

ـ وهناك يمكن أن تجري مجموعة من الاتصالات تمهد لزيارتكم يا صاحب الجلالة .

قال السلطان وكأنه يحدّث نفسه :

ـ ترى اللي يروح بدون دعوة يقعد على غير بساط يا ابو غزوان !

وتطلع إلى عيني الحكيم بتركيز واضاف :

ـ لما كنا بحيلنا وقوتنا ، يا ابو غزوان ، ما قالوا لنا تفضلوا ، ما قالوا تعالوا يا جماعة الخير ، تريدهم هالحين يتنخون ويقولون : تعالوا ؟

واضاف بعد قليل ، مع تنهيدة طويلة :

ـ بلادي وان جارت عليّ عزيزة   واهلي وان ضنوا عليّ كرام

وهز رأسه عدة مرات :

ـ لكن الظاهر انه ما ظل لنا بلاد أو عباد ، يا ابو غزوان . البلاد بعيدة أو راحت ، والاهل ما عادوا اهل .

وبأسىً كاوٍ يخفض صوته وهو يردد :

ـ وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

الحسام المهند

المهند

ولم يتأخر الحكيم ، ابلغ وداد بالسفر ، وطلب منها أن تستعد . امتلأ يقيناً انه سيتوصل إلى نتائج حاسمة خلال فترة قصيرة . سيبلغ السلطان بهذه النتائج ، لكن يجب أن يفعل ذلك بطريقة ذكية ، لئلا تتكشف الامور . يتفق معه على مجموعة من المصطلحات والرموز ، لكي يتبادلا الاخبار والتقديرات دونما احساس بالخطر أو بالمراقبة . وسوف يتفق مع غزوان على طريقة

لمواصلة الاتصالات في المستقبل أيضاً!

حين ارتسمت له الصورة كاملة بدا اكثر راحة وتفاؤلاً . المهم أن يلتقي بالمسؤولين الاميركيين لكي يبحث معهم كامل التفاصيل . يتذكر كيف كانوا يتبادلون النظرات وهو يتكلم ، وهو يجيب عن اسئلتهم اثناء زيارته ، كانوا لا يخفون اعجابهم . الآن يمكن أن يتوصل معهم إلى النتائج المرغوبة دون جهد ، سوف يقنعهم بكل تأكيد . وسوف يعود إلى موران منتصراً .

عندما بدأ الحكيم بالاجراءات العملية واجه صعوبات لا حدود لها ولم يتوقعها : القنصلية الأميركية في شتوتغارت لن تستطيع مساعدته بأكثر من ارسال طلبه إلى السفارة في بون، والأفضل أن يقدمه بنفسه هناك . والسفارة في بون لا تمنح السمات إلا للالمان أو المقيمين بصورة دائمة ، ولا بد من استشارة واشنطن في جميع الحالات . وواشنطن تجيب «على طالب السمة أن يحصل عليها من موران ، أو أن يحصل على موافقة حكومته !» .

بعد انتظار وشروح لا نهاية لها ، وبعد اتصالات عديدة بغزوان ، والذي أوضح أنه لا يستطيع مخالفة القوانين الاميركية ، وافقت السفارة على منح وداد سمة لزيارة ابنها ، وابلغت الحكيم أن طلبه «قيد الدرس» ، وحالما تتلقى جواباً من واشنطن سوف تقوم بابلاغه الجواب .

بعد عشرة ايام من سفر وداد ، وبعد محاولات عديدة ، في الليل والنهار ، لقط غزوان :

- الله يصلحك ، نطعت قلبي يا غزوان . كل يوم عشر اتصالات ، عشرين اتصال ، وحضرتك غير موجود .

كان جواب غزوان ، في الجهة المقابلة ، ضحكة رنانة فرحة . واستشاط الحكيم :

- اي والله الحق معك ، شو على بالك ، اضحك كمان .

ولا يتردد غزوان في مواصلة الضحك . يزمجر الحكيم :

- مالك حق يا ابني ، وانا زعلان منك ومن الخانم ، امك ، كتير .

وبعد أن يستمع إلى شرح غزوان كيف انتظر امه في نيويورك ، وانه تجول معها في عدة مدن اميركية قبل أن يصلوا أول امس إلى سان فرانسيسكو ، يرد الحكيم بحزم :

- يا حبيبي ، يا عيني ، كان لازم من اي مكان انت فيه تتصل ، تقول : انا بالمدينة الفلانية ، يا جماعة الخير ، انا مبسوط ، والوالدة وصلت . . .

وبعد قليل وقد عاد لصوته شيء من الغضب :

- تخسر شي لو فتحت تلفون وقلت كلمة ، كلمتين ؟

وبعد أن يطيب غزوان خاطره ، ويعد بالاتصال ، يسأله الحكيم من جديد :

- وامك ، يا غزوان ، كيف صحتها واحوالها ؟

وقبل أن يستمع إلى كامل اجابته يقول له :

- إذا كانت قريبة خليها تحكي معي .

حين يسمع صوت ضحكتها الرنانة ، وكلماتها المتداخلة بين الاعتذار وعدم معرفتها الاتصال وانشغالها ، يصرخ :

- وينك يا بنت الحلال ؟ هيك اتفقنا ؟

وتضحك . ترتخي اعصابه ، يصبح مستعداً للتسامح والنسيان . يقول لها وكأنه يهمس :

- كيف اقتنع معك ؟ واثق ؟

تجيب عن سؤال آخر . يهز رأسه بحزن ويتابع :

- مثل ما اتفقنا يا حبيبتي . ابذلي كل جهدك ، ولازم ترجعوا بسرعة .

وحين توضح له انها لم تسترح بعد من عناء السفر ، وعليه الصبر والانتظار ينفعل :

- يا حبيبتي يا عيني : لاحقين على السفر وشمات الهوا . بس الآن في قضايا

اكبر واهم ، ولازم تساعديني ، فهمانة ؟

وتؤكد له انها فهمت ، لكن القضية ليست بالسهولة التي يفترضها . يصرخ بحدة :

ـ اعطيني غزوان .

وتتغير اللهجة ، تصبح صارمة :

ـ ها يا غزوان ، شو صار بسمة الدخول ؟

ويفهم منه ان القضية تتطلب وقتاً ، وربما وقتاً طويلاً ، فيهدر صوته :

ـ لك يا حبيبي ، المرة الماضية اعطوها على الحارك . ساعة ما تحملت ، بدون اسئلة وبدون مراجعات ، شو صار بالدنيا ؟ ليش هالعرقلة والتعقيدات؟

وجلس على طرف السرير ، بعد أن تعب من الوقوف والحركة ، وتغيرت اللهجة :

ـ اسمع يا غزوان : لازم نلتقي ، وأنا لو اعطوني السمة لكنت ثاني يوم عندك ، لكن ما دام تأخروا فانت احمل حالك وتعال . الموضوع هام ولا يحتمل التأخير .

وينقطع الخط فجأة . ويبذل الحكيم جهوداً خلال ساعة أو أكثر ليعاود الاتصال ، لكن لا يوفق ، فيأوي إلى فراشه وخيوط النور تتسرب عبر النافذة . يحاول أن ينام فلا يستطيع . يتخيل وداد ، ترن ضحكاتها في اذنيه . يحس انهما سعداء . يقول لنفسه : « طبيعي ، الصياد يتقلى والعصفور يتقلى . الجماعة مبسوطين ، مروقين ، وحضرتي ملعون سنسفيل اجدادي وآكل خرا » .

يتقلب في الفراش ، لكن النوم لا يأتيه . يسمع جلبة تبديل الحرس ، يقول في نفسه : « المرة الماضية بدون طلب : تفضل يا دكتور ، ونحن سعداء بزيارتك . ولازم تقوم بجولة على جميع الولايات ، ولازم تكون ضيف

الحكومة الاميركية . هذه المرة : يا جماعة الخير اريد زيارة ابني . ابني غزوان ، والكل يعرفه ، لكن : متأسفين . يجب أن تقدم طلباً وتنتظر . ويجب أن يتضمن الطلب معلومات حتى الجد السابع ، وان تذكر فيه جميع الامراض التي اصيبت بها العائلة ، خاصة البلهارسيا والتراخوما ، وكأن الواحد مصاب بالجذام ويخافون منه ، أو لا يريدونه» .

وماذا يقول للسلطان ؟ وكيف يرد على نظرات زيد الساخرة ؟ ويتذكر كلمات زيد عندما بدأ يستعد للسفر :

ـ يا ابو غزوان : شوري عليك أن تبقى ، لأن طويل العمر يتونس بوجودك، وما يقدر على فراقك !

ولما اوضح له الحكيم أن السفرة ضرورية إلى اقصى حد ، وتتوقف عليها نتائج كبيرة ردّ زيد بسخرية :

ـ من مغرب ، يا أبو غزوان ، ما جتنا الا البلايا ، من حماد وجماعة حماد ، وامثالهم ، والأخْيَرَ أن نتركهم .

حاول الحكيم تغيير الموضوع :

ـ مجرد زيارة لغزوان .

ـ وعلامة ما يجينا ؟ ما يسأل عنا ؟ وإلا الدنيا صارت بالعكس : الكبار يروحون للصغار ؟

وتتحول المسألة في ذهن الحكيم إلى تحدٍ ، أو ما يشبه عناد الاطفال : « يجب أن يأتي ، ومهما كانت اشغاله يمكن أن تؤجل » . ولا يصبح لديه همّ إلاّ أن يتصل به ، لكن معظم محاولاته تصطدم بالصمت . وترن في اذنيه ضحكات وداد « قادرة تطلّع الحية من جحرها ، ولا بد أن تقنعه » .

ومع كل محاولة جديدة للاتصال تطول قائمة الاسئلة التي دوّنها لكي لا تفوته اية قضية . لكن التلفون ، هذه الآلة اللئيمة ، لا يجيب ، أو انه مشغول في الغالب « هؤلاء الالمان لا يعرفون شيئاً سوى الثرثرة . انهم يقضون حياتهم يثرثرون في مشارب البيرة أو بالتلفون» . ثم يفترض أن تلفون غزوان هو المشغول « الا يستريح ؟ وهل لديه كل هذه الاشغال والعلاقات التي تجعل

تلفونه مشغولاً بصورة دائمة ؟ » ويعاود ، من جديد ، حساب فرق التوقيت بين المانيا والولايات المتحدة ، خاصة الساحل الغربي ، هذه المسألة تقلقه تماماً ، أو بالأحرى لا يستوعبها بالمقدار الكافي ، ومع ذلك لا يكف عن المحاولة .

ذات مرة ، بعد الغداء مباشرة وبعد ذلك السؤال اللئيم من زيد عن موعد سفره ، وربما عرف أن السفارة الاميركية رفضت منحه السمة ، بدأ يحاول الاتصال . بعد عدة محاولات رن التلفون في الجهة الاخرى . امتلأ فرحاً . نسي كل تعبه السابق ، وقدر ان الوقت مهما كان متأخراً فلا بد أن يجري حديثاً هادئاً وحاسماً .

للحظة سمع صوتاً في الجهة الأخرى . قدر أنه صوت غزوان . كان الصوت بين النوم والغضب . قال بضع كلمات بالانكليزية ، وخبط سماعة التلفون .

لم يصدق. لا يمكن أن يحصل هذا، لا بد أن يكوّن هناك خطأ من نوع ما، فغزوان شديد الأدب ولا يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة!

ولم يستطع أن يهدأ الا بعدما أقنع نفسه أن الصوت الذي سمعه لشخص آخر، غير غزوان، ولا بد أن يكون قد أيقظ ذلك الشخص من النوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولم ينم في تلك الليلة إلا بعد أن ابتلع حبة فاليوم.

وزيد لا يتركه، لا يسهو عنه يوماً واحداً، فإذا لم يطلب منه تلك الطلبات « المتعلقة بالمعيشة» كما يسميها، والخاصة بالمعاملات والاتصالات والأوراق، فلا بد أن يسأله، وبطريقة ساخرة، عن مطيع أو سمير أو غزوان. فإذا تجنب هؤلاء، يسأله عن الأخبار، وهو بأسئلته، والتي ترافقها الابتسامات، يعرِّض به، يتهمه. وتكون اجابات الحكيم سريعة مختصرة، حادة، فيهز زيد رأسه دلالة الفهم والاقتناع، لكنه وهو يفعل ذلك، يثير الحكيم اكثر من قبل!

لو اقتصر الامر على هذه الواجبات والاسئلة لاحتمل الحكيم ، لكن نزلاء الفندق اصبحوا هماً مستمراً ، فهم لا يفعلون شيئاً سوى العراك ، وعلى

مرأى من الناس. كما لا يتردد عدد منهم في شرب الخمر علناً، وما يستتبع ذلك من تعديات على الآخرين ، أو النوم في ممرات الفندق ، رغم تدخل الشرطة والعقوبات التي توقع على الكثيرين في ساحة القصر .

الأيام التي خلت من المعارك لم تخل من الأخبار. فإذا خلت من الاثنين معاً، فلا بد أن تمتلىء بالأمطار والأحزان والانتظار.

كل شيء في القصر ثقيل خانق ، الامر الذي دفع الكثيرين إلى الصمت ، ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين . وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة ، لأن كل كلمة تسبب اختلافاً ، واية نظرة تولد شقاقاً وسوء فهم .

وليالي بادن بادن ليست مثل اية ليالٍ غيرها ، فهنا الصمت قوي فضّاح ، والظلمة لها بريق يُغشي البصر ، فإذا امتلأت بالرعود والامطار ، فعندئذٍ يحس الانسان انه محاصر بآلاف الاعداء ، وعندها يغادره النوم ، وتستيقظ فيه المخاوف ، فلا يعرف هل يبقى حيث هو ام يهرب إلى اي مكان آخر لعل فيه تكون النجاة .

الحكيم يمتليء تصميماً ، مطلع كل نهار ، أن يكون أكثر حكمة واكثر صبراً ، وان يستفيد من وقته كله ، لكن مع ارتفاع الشمس وتقدم النهار لا بد أن تقع عشرات المنغصات التي تجعله ينسى . فإذا لم يأت هانس اورلخت ، فلا بد أن يتصل تلفونياً . وبوجوده ، او باتصاله ، تنبع المشاكل الصغيرة : كتابة مذكرات لوزارة الداخلية من اجل تمديد اقامة الحرس والمرافقين ؛ مذكرات للمشافي ، تأمين المؤونة والاسفار ، اضافة إلى رسائل المصارف والتحويلات . ان هذه الاعباء تقع على كاهله في الغالب ، لأنه الوحيد الذي يحسن الألمانية، بعد أن سُحب أغلب المترجمين، واضطر من بقي منهم إلى ملازمة نزلاء الفندق.

إذا انتهت هذه المشاكل ، وغالباً ما يتخللها الكثير من الاختلاف والتصحيح واعادة الكتابة ، وزيد دائماً المتسبب بهذه « المنغصات » كما يسميها الحكيم ، فلا بد أن تكون الاخبار الواصلة من موران ، أو التي لم تصل ، سبباً لمزيد من المشاحنات والاختلافات ، خاصة حين يدعو السلطان

إلى اجتماع من اجل التشاور . فغالباً ما يتسمم الجو بسرعة في هذه الاجتماعات ، لان كل كلمة ، ونظرة ، وحتى الابتسامة الصغيرة ، تفهم على انها تحدٍّ أو تعريض ، وكل تصرف يمكن أن يفسر تبعاً للعلاقة ، وعمن يصدر .

من اكثر الشخصيات التي تثير استغراب الحكيم وتساؤله : الامير مجحم. إذ رغم السنوات الطويلة التي قضاها في موران ، وتعّرف خلالها على كل شيء ، ولم يبق احد ، تقريباً ، إلا وعرفه أو عرف عنه شيئاً ، فإن الامير مجحم ظل بالنسبة إليه محيراً ، فهو بالإضافة إلى غموضه ، مرهوب ومحبوب من جميع الاخوة ، وان كان مختلفاً عنهم . وهو قدر ما كان موجوداً كان غائباً ، لأن الفترات التي يقضيها في البادية ، ومن اجل القنص ، اطول من الفترات التي يقضيها في أي مكان آخر .

التقى به الحكيم مرات قليلة ، أو على التحديد لا تتجاوز الثلاث عداً ، ولا تتجاوز الساعة الواحدة في مجموعها . أول مرة جاء الامير لالقاء نظرة على الحصان الذي قدمه الحكيم للسلطان في عيد الجلوس . المرة الثانية التقى به في البادية ، ولم يعرفه أو لم يميزه من رجاله لأول وهلة ، كما لم يطل الامير وقوفه لانه كان مشغولاً بصقوره ، وبرغبة متابعة القنص .

المرة الثالثة كانت في حضرة السلطان ، وكانت اطول المرات . ففي احدى زيارات الامير إلى موران ، جاء للسلام على اخيه السلطان ، وكان الحكيم موجوداً ، وقد انقضى الوقت في الحديث عن الرحبية . كان الآخرون يتحدثون وكان يستمع . لم يتكلم الامير ولم يعلق. وما لفت نظر الحكيم الضحكة العالية المجلجلة التي كانت تميز الامير ، حتى ليظن من لا يعرفه أنه لا يحسن الكلام ، او يكتفي بيده وعينيه وسيلة للتعبير .

ولأن الامير مجحم كثير الغياب ، ويختلف عن الاخوة الآخرين ، فلم يرد ذكره إلا نادراً ، أو حين يجري الحديث عن الصيد .

الآن ، بعد مكالمة هاتفية مضطربة وسريعة من السفارة في بون، انتشر

خبر وصول شخصية كبيرة من موران ، وان هذه الشخصية ستصل لمقابلة السلطان بين لحظة واخرى .

قال الحكيم ، ولم يستطع ان يخفي اضطرابه :

ـ الزائر الذي سيصل هو الامير فنر . . . بكل تأكيد .

رد زيد ، وهو يتطلّع إلى السلطان :

ـ الأخير أن تنتظر وتشوف ، يا طويل العمر .

ـ طويل العمر لا يتباحث إلا مع أهل الحل والعقد ، ويجب أن يعرفوا ذلك .

هكذا قال الحكيم ، في محاولة لأن يضغط على السلطان . رد زيد بحنق :

ـ وكل الله يا ابو غزوان ، والأمر امر جلالته .

قال السلطان بحزن :

ـ خلنا أول مرة نشوف الرسول ، وبعدها الله كريم .

وفكر الحكيم أن توضع مذكرة تتضمن شروط صاحب الجلالة ، لكن جو الصمت الذي خيم ، الذي كان اقرب إلى الحزن والهم ، جعله يصرف النظر . ومع ذلك بدأ يرتب الامور في ذهنه ، وكان مستعداً لأن يهمس في اذن جلالته بهذه الشروط اثناء المباحثات !

كان الزائر الامير مجحم ، وصل والسفير . وخلال الدقائق القليلة التي استغرقها الاستقبال والسلام ، تحرك الحكيم كثيراً ، وبدا في حالة من التفاؤل اقرب إلى التألق ، خاصة وان طريقة سلام الامير كانت حارة ، وايضاً شديدة الود ، أقرب إلى الاعتذار . للحظات بدا السلطان شخصاً آخر ، إذ عاد لعينيه البريق وابتسم ابتسامات واسعة، انعكست بالرضا على وجوه الجميع ، بمن فيهم السفير الذي كان شديد الحرج خلال اللحظات الأولى .»

بعد ذلك ، وبطريقة اقرب إلى التآمر ، انسحب السلطان واخوه إلى غرفة مجاورة ، وظلا وحدهما ساعات عديدة .

كانت صدمة كبيرة للحكيم ، فهو الآن اكثر من مجرد مستشار لجلالته ، كما كان الضحية الأولى للمؤامرة ، لذلك لا يمكن ولا يوافق أن يكون بعيداً ، أو أن يعود كنتيجة لاتفاق الاخوة . يجب أن يعتذروا له ، وان يكون ذلك علناً ، ويجب أن يُردّ اعتباره ، بعزل الذين تسببوا بهذه الاساءة ومحاكمتهم . أما ان تنتهي الخلافات والاساءات ببوس اللحى وعفا الله عما مضى ، فلن يوافق . اكثر من ذلك قد يضطر إلى عدم العودة نهائياً إلى موران .

بعد أن فكر ملياً بالامر ، قدر أن ما يجري بين الاخوين هو العتاب ، وانهما يفضلان أن يكون بينهما وحدهما، والعادة أن يجري على انفراد، ولذلك سيتغاضى عن الامر ، ولن يتوقف عنده طويلاً .

انشغل مع السفير باحاديث جانبية عن الطقس والامور العامة ، وتعمّد أن لا يسأله عن موضوع سمة الدخول إلى الولايات المتحدة ، لكي لا يلفت نظره ، ويثير شكوكه . عندما حُمل العشاء إلى غرفة السلطان ، احس الحكيم بالاهانة ، إذ يمكن أن يفهم بعض المواقف المحرجة ويتسامح فيها ، وقد تطول خلوة العتاب ، أما أن لا يُحسّ بوجوده ، أن يعامل كالآخرين ، وما عليه سوى الانتظار ، فاكثر مما يحتمل . وحين انسحب السفير إلى فندقه، ومعه بعض مرافقي الامير ، بدا واضحاً أن المباحثات الجدية سترجأ إلى الغد ، ولذلك لم يتردد في أن ينسحب إلى جناحه!

وحتى ساعة متأخرة ظل يسمع تحت شباك غرفته جلبة ، كان يتميز فيها صوت زيد وهو يعطي اوامره أو يطلب نقل بعض الإمتعة . وقدر ، دون أن يكون متأكداً ، أن الامير مجحم تمشى في الحديقة قبل أن يأوي إلى فراشه .

في اليوم التالي تعمد الحكيم النزول مبكراً إلى الحديقة ، كان متأكداً أن السلطان سيصطحب ضيفه وبزهو واضح ، ليطلعه على الزهور والرياحين ، وليجعله يقارن ، ضمناً ، بين موران وبادن بادن . فإذا كان موجوداً ، فلا بدّ أن يتقدما نحوه ، وفي ذلك معنى من معاني الاعتذار ، ثم ستجري الأحاديث على رَسلها ، وسوف يثبت للامير مقدرته وكفاءاته حين ينتقل من موضوع إلى آخر ، وبعدها يواصلان اجتماعاتهم ، ويكون الأول والأخير في صياغة الأفكار والاقتراحات .

ومثلما اجتمع الاخوان أول مرة واصلا اجتماعهما في صباح اليوم التالي ، فلم يحضر احد معهما ، وربما قدّر السفير ذلك فتأخر في الوصول إلى القصر ومعه مرافقو الامير . أما حفلة الغداء التي اقامها السلطان فقد حضرها معظم الاشخاص ، الامر الذي لم يشعر الحكيم باية ميزة أن يكون موجوداً ، ولم يحرضه على المشاركة باي حديث ، خاصة نتيجة التجهّم أو الانشغال الذي بدا على السلطان واخيه .

خلال فترة بعض الظهر خرج السلطان واخوه في جولة حول المدينة ، وقد رافقهما زيد بنفس السيارة ، وفضل الحكيم البقاء في القصر ، ليعطي لنفسه تميزاً يجعله مختلفاً عن الآخرين ، ولكي يشعرهم ، اكثر من قبل ، انهم بدونه لا يستطيعون شيئاً ، إذ لا بد أن يحتاجوا بشكل أو آخر إلى معلوماته أو إلى لغته ، وسوف يتساءلون !

كل ذلك غير مهم ازاء ما حصل بعده . إذ ما كاد الموكب يعود ، وربما نتيجة اتفاق تم خلال الجولة ، حتى بدأ اجتماع حضره معهما اثنان من مرافقي الامير ،وحضره السفير وزيد الهريدي.وقد تم بتعمد تجاهل أو نسيان الحكيم فلم يدع للاجتماع ، وظل هو يتمشى في الحديقة الخلفية ، وقد لمحه الكثيرون ، لكن زيادة في الترفع ، تظاهر بمراقبة الحديقة ، وأنه لم يلحظ أو يفطن لعودتهم .

انتظر لعدة دقائق ، إذ ربما وقع سهو أو انشغلوا ببعض الأمور الطارئة . تقدم إلى الحديقة الامامية ، إذ يحتمل أن يكونوا بحثوا عنه ولم يجدوه . صرخ على احد الحرس ، خلافاً لعادته ،وكان تحت شباك الغرفة التي اجتمعوا فيها ، وسأل إن عاد السلطان ، فلما أكد له عودة جلالته ، سأله من جديد إن كان متأكداً ام لا .

كان يتوقع في كل لحظة أن تنفتح الابواب ويهرع اكثر من واحد معتذراً وطالباً إليه أن يسرع في المجيء ، لأن الجميع بانتظاره ، لكن الدقائق تمر ثقيلة معادية إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل . هل نسوه ؟ هل تعمدوا نسيانه ؟ الا يريدون أن يكون بينهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يوافق

السلطان ؟ هل هو شرط الامير أم شرط موران ؟ وهو . . هل يلبد كقط ويسكت منتظراً اللحظة التي ينادى فيها عليه أم يثور ويقلب الاشياء فوق رؤوسهم ؟ وإذا لم يكن منذ البداية ، وبكل ثقله ، صانعاً وشاهداً ، هل يقبل أن يؤتى به ، في اللحظات الأخيرة فقط ، استكمالاً للشكليات ؟

كل ما مر عليه من مصاعب واهانات لا تعادل لحظة من لحظات الانتظار هذه . مرت عليه مصاعب كثيرة ، وواجه لحظات قاسية ، لكنه كان يقاوم ، كان يحتمل . الآن يشعر أنه مهزوم ، مهزوم وذليل . لا احد إلى جانبه ، لا احد يريده . الجميع يهربون منه وينكرونه . وهؤلاء الناس ليسوا اعداءه ، انهم الاصدقاء ، أو هكذا كان يفترض .

كيف يتصرف إزاء الذين منحهم أحسن أيام حياته وأعز ما عنده؟ لم يكتف بان يحبهم ويخدمهم ، اعطاهم جزءاً من لحمه الحيّ ، اعطاهم ابنته الوحيدة ، وها هم الآن يتخلون عنه ، لا يعترفون به ، بل ولا يحسون بوجوده !

دارت به الدنيا ، غامت ثم اسودت ، اضطربت ثم عصفت ، اصبح صغيراً مسحوقاً، ذرة رمل في ريح ، شيئاً لا وزن له ولا قيمة . أحس أنه وحيد تماماً ومتروك .ماذا يفعل . . . هل يبقى منتظراً كالمشلول لا يفعل شيئا سوى انتظار حسناتهم وعطفهم ؟ وإلى متى يبقى هكذا ؟ وكيف سينظرون إليه بعد أن تنتهي الاجتماعات ويتفقون وضحكاتهم تملأ وجوههم ؟ هل سيقولون له ؟ ولماذا ؟ ومن هو ؟

فكر أن يمرّ على سلمى في جناحها ، أن يقضي معها فترة من الزمن ، أن يسألها عن حياتها أو عن سعادتها ، لكن لم يجد في نفسه القوة أو الرغبة . بالتأكيد ستصمت ، أو ربما سألته عن السلطان ، ماذا . . ايقول لها أنه لم يدع إلى الاجتماع وانه لا يعرف شيئاً ؟ ايكذب ويدعي انه لم يحضر الاجتماع لانحراف صحته ؟

دون تردد ، بل بطريقة اقرب إلى الحزم ، توجه إلى جناحه .

اية ليلة كانت تلك الليلة من حزيران ؟ اية احزان واية افكار مرت في تلك

الليلة ؟ شعر بالاختناق إلى درجة المرض ، وشعر بالقهر إلى درجة الألم .

حتى لو اراد أن يستعيد ويتذكر فإنه لا يستطيع . يتذكر انه بكى مثل طفل ، ويتذكر أنه ضرب رأسه بالجدار، ويتذكر أنه دفن وجهه في الفراش، لكن ما حصل اكثر من ذلك واكبر ، لأنه في اليوم التالي وهو يتذكر اختلطت الوقائع إلى درجة لا يعرف أي شيء حصل قبل الآخر .

فغزوان وهو يرد عليه ، اكد له ، بطريقة معينة ، انه سيبذل جهده لكي يجيء أو أن يؤمن له سمة الدخول في اقرب وقت ممكن .

ووداد ، وهي ترد عليه ، اقسمت انها حزمت حقائبها وستعود ، سواء عاد معها غزوان أو لم يعد .

وسلمى جاءته ، لا يتذكر إن جاءت قبل المكالمة الهاتفية أو بعد ذلك ، لكن بدت له حزينة إلى درجة لا تصدق ، ويتذكر أنه بكى واياها . كانا يبكيان كطفلين ، وضعت رأسها على كتفه وظلت تبكي وتنشج فترة طويلة من الزمن ، عادت تبكي مثلما كانت تفعل قبل فترة طويلة ، كانت تريد أن تبقى معه ، أن لا يتركها ، وظلت تبكي حتى بعد أن أوصلها إلى غرفتها . ويتذكر أنه كان يسمع الضحكات والتعليقات في الحديقة الخلفية . ويتذكر أنه شم رائحة الشواء . كان الدخان يعلو حتى يصل إلى غرفته ، مما اضطره إلى فتح النافذة الثانية ، لكي يبدّد الهواء الرائحة الخانقة ، رائحة الدهن المحترق .

أما وهو يستمع إلى ضحكات زيد الهريدي واوامره فقد كان يحس أن سكيناً تنغرز في خاصرته . كان زيد يفعل ذلك بلذة وسادية ، ويتعمد فجّ . كاد أن ينزل إلى الحديقة ، أن يمسك زيداً من كتفه ويصرخ في وجهه : « أنا اكبر من هذه الاشياء الصغيرة يا زيد ، ولا تلعب معي هذه اللعبة ! » وفكر أن يلبس ثيابه ويقابل السلطان : ويا ابو مشعل : انا رجل صاحب مبادىء ولي رؤيا فيما يجب أن تكون عليه الاوضاع ، ولقد جئت بهذا الدافع ولهذا الهدف ، حاولت ، لكن الظروف لم تكن مواتية ، وها أنذا اتركك ، لكن ليس كما تركك الآخرون ، ليس عن جبن أو رغبة في الاحسن ، وانما لأن الزمن لم يساعدنا ، أو بالأحرى لأن القضايا لم تتوافق ضمن التصور الذي

افترضته ، ولذلك فاني اعلن فشلي واعلن خيبتي ، وسوف اتفرغ من جديد إلى الكتابة» .وايضاً لا بد أن يوجه كلمة واضحة إلى الامير مجحم ، « وانت ، يا صاحب السمو ، يجب أن تعرف بوضوح من هو صبحي المحملجي ، واية افكار دفعته إلى موران . لا يهم ماذا تفكرون او كيف تنظرون إليّ ، المهم أن تفهموا بوضوح أي انسان كنت ، وماذا اردت أن تكون موران . ولا يعنيني بعد ذلك أن تبقوا ضمن قناعاتكم وافكاركم ، أو ان تفهموا الحقيقة » .

لا يعرف كيف نام أو متى ، ولا يعرف من جاءه أو ماذا قال له . يتذكر آخر كلمة سمعها من وداد . قالت له وهي تحاول أن تضحك وتعطي ضحكتها نوعاً من الفرح :

ـ يا أبو غزوان أنا معك، ولو كنت قريب كان عرفت، لكن لازم تطول بالك.

وحاول أن ينام ، ابتلع حبتين من الفاليوم ، ولم يكن الفارق بين الحبة والأخرى اكثر من نصف ساعة ، وهذا ما يفعله أول مرة في حياته .

وعندما نام حلم انه يتعارك مع غزوان . ويتذكر انه طلب من وداد عدم التدخل ، وانه قال للسلطان انه سيسافر . ويتذكر انه قبّل سلمى ، وقال لها : يجب أن تصبري يا حبيبتي ، لأنه لا بد لنا أن ننتهي من هذه المحنة .

اسبوع وحالته تراوح بين الانهيار الكامل ، نتيجة الحمى والبرودة اللتين تتناوبان عليه كل ساعة ، وفترات الصحو القصيرة التي تفصل نوبة عن اخرى .

لا يعرف متى رحل الأمير ومرافقوه ، ولا يتذكر أنه رأى وجوهاً يعرفها . صحيح أن الاطياف كانت تحوم حوله ، وكان يسمع اصواتاً تخاطبه ، لكنه لم يستطع أن يميز شيئاً أو احداً . حتى في لحظات الصحو القصيرة ، حين يفتح عينيه ، وينظر حوله ، كان اقرب إلى الاعياء والتلاشي ، فلا يقوى على التقاط الصور والكلمات ، إذ سرعان ما تتبدد وتذوب ، ويغرق في الحمى من جديد .

عندما بدأ يستعيد وعيه وشيئاً من قوته لم ير سوى سلمى إلى جانبه . كانت تتحرك بخوف واضطراب ، وكانت عيناها حمراوين ، تحيط بهما هالات زرق ، وللحظات بدت له امرأة اخرى : اكبر سناً واكثر شحوباً ، وكأنها لم تعرف طعم النوم لعدة ليالٍ متوالية .

اخفت عنه دموعها وهي تحدثه . قالت ان امها وغزوان اتصلا عدة مرات ، وان الطبيب الذي عالجه اكد انها حالة عابرة سوف تزول بسرعة ، وهي من نتائج ملاريا قديمة .

كان يستمع بصمت. يجيل نظراته في الغرفة. ينظر الى الطاولة الصغيرة بجانب سريره وقد امتلأت بالأدوية. يحاول أن يتذكر كيف حصلت الأمور، أو كم مر عليه وهو مريض، فلا يصل الى نتيجة. تختلط الوقائع وتفقد ترابطها وتسلسلها، ولا يجد في نفسه الرغبة لأن يسأل، أو لأن يعيد ترتيب الوقائع .

في الأيام اللاحقة زاره السلطان وزيد . زاراه أول مرة معاً ، ثم بدأ كل منهما يزوره بمفرده . وبدأت الزيارات ايضاً تتباعد . زاره هانس اورلخت ، واكد له ان الطبيب مطمئن، وتأكد من تشخيصه للحالة باعتبارها ملاريا مزمنة . كان الحكيم لا يفعل شيئاً للرد على الاستفسارات والنظرات الا محاولة ابتسامة ، وغالباً لا يطاوعه فكاه ، فيكتفي بهزات رأسه شاكراً وموافقاً .

ولان لديه وقتاً طويلاً ، ولكي لا يشغل نفسه « بالافكار السوداء » ، كما سمى ذكرياته حول حياته الماضية ، اخذ يشغل نفسه بمراقبة الحمام او انتظار اصوات البلابل . كانت هذه المخلوقات الصغيرة الرائعة تملأ حديقة القصر .

لأول مرة في حياته يكتشف أنه ينتظر أشياء يحبها ، وان هذه الاشياء دائماً تلبيه ولا تخيب امله .

فما يكاد بلبل في جانب من الحديقة يصدح حتى يجيب آخر ، بعد لحظات، من الجانب الثاني. كانت هذه الطيور تتبارى في التغريد والإطالة، وكان هو ينتظرها بكثير من اللهفة والشوق. أصبحت تملأ ساعاته الطويلة. وأصبح ينتظرها . وبالغ فتصور أنه يعرفها واحداً واحداً ، واسف لأنه لم يحب الحيوانات طوال حياته. أما البشر الذين أحبهم، الذين مدّ لهم يد المساعدة، فلم يبادلوه الحب، بل أكثر من ذلك تخلوا عنه وأساءوا إليه عندما واتتهم الفرصة!

حتى الحصان الذي اهداه للسلطان قبل سنين كان مجرد مقدار من المال ، اكثر مما كان شيئاً يحبه ويعتز به. وتذكر بدري المدلل وعصافيره ، وكيف غضب وسخر عندما انشغل بها قصر الغدير ، وندم انه قال كلمات قاسية لمحمد عيد .

الآن ، خلال الساعات الطويلة ، وهو مستلق على سريره ، لا يفعل شيئاً سوى تحريك رأسه في هذا الاتجاه أو ذاك ، انتظاراً لرؤية زوج من الحمام ، أو لسماع صوت بلبل ، ثم الرد على الصوت الأول .

عملية فاتنة تعطي للحياة معنى ، وللانتظار قيمة ، بل اكثر من ذلك تعطي

للوقت جدوى ، إذ لولا الانتظار الممض الممتع للصوت الذي يحبه لما احتمل الدقائق التي يزوره خلالها زيد . كانت دقائق ثقيلة كثيفة ، تشبه الرصاص المصهور ، أو حالة الغرق ، لا يقوى على احتمالها ولا يعرف إلى متى تستمر . حتى الوقت الذي يقضيه السلطان إلى جانبه كان اقرب إلى المجاملة الساخرة ، إذ لا يجدان ما يقوله الواحد منهما للآخر . فما عدا السؤال عن الصحة ، ويكون الرد عليه همهمة أو هزة رأس ، فإن الصمت يغرق الرجلين .

وسلمى . . . تلك العصفورة الصغيرة الوحيدة الحائرة ، والضعيفة ايضاً ، لشد ما تغيرت خلال هذه الفترة . كانت ، في فترة سابقة ، تملأ حياته بزقزقاتها واناشيدها . كانت تعرف كيف تتسلل إلى قلبه ، ومتى تتشبث برقبته . الآن ، وهي تدور حوله ، وهي تحمل صينية الطعام أو كوب العصير ، حزينة ، مملوءة بالخوف . فإذا تبادل معها بعض الكلمات ترتبك ، وكأنها لا تفهم ما يقوله ، أو تخشى من الخطأ . حالة من الشعور العميق بالاثم ، واللحظة اللاحقة لحظة العقاب .

قال لنفسه ، وقد تعجب من الفكرة التي خطرت له : « ربما لم يطل نهار الصيف بهذا القدر الا ليمنح الطيور فرصة اطول للتمتع بالحياة . » واستهوته الفكرة ، وبدأ يفكر فيها : « الطيور ، وكل الحيوانات ، تعبد النور ، تستحم فيه ، تلاحقه من مكان إلى آخر ؛ وفي النور تأكل ، تطير ، تمارس الحب ، وتتفلى في ضوئه . فإذا جاء الظلام ، أو جاءت الأيام الشتائية القصيرة ، خلدت إلى الراحة أو بدأت هجراتها . أما الانسان فإنه يفعل العكس : ينتظر الظلمة لكي يمارس ما يعتبره جميلاً ولذيذاً ، وفي الظلمة ايضاً تتم المؤامرات ، وتتغير الدول ، وتُحضر الاغتيالات والفتن ، بحيث لا يبقى للنهار إلا تلك الاقنعة التي يضعها الناس لكي يخفوا وجوههم وقناعاتهم ، والعواطف التي تملأ قلوبهم » .

ويسمع صوت البلبل فيمتلىء فرحاً ، صوت لا يصدر من حنجرة ، ولا يقوله اللسان ، انه يقال بكل الجسد ، بالخلايا ورعشات الدم وصهيل

الريش ، فيمتلىء الهواء بذلك الفرح اللذيذ الذي ينتقل إلى حبات التراب واوراق الشجر ورائحة الورد ، فيبدو جليلا كثيفاً ، وكأنه يصدر من الطبيعة كلها ، وليس فقط من هذه اللهاة لذلك الطير الصغير .

ما كادت بضعة ايام اخرى تمضي حتى اصبح الحكيم قادراً على النهوض من الفراش والتمشي في الغرفة . قال لنفسه ، في اليوم الأول ، بعد أن احس بالإعياء : « جسد الانسان شديد العطب ، يحتاج إلى سنين لكي يُبنى ، ولا يتطلب اكثر من ايام لكي ينهار » .

في الأيام التالية اصبح يقضي وقتاً إلى جانب النافذة ، وخلال ذلك الوقت ، وبالاضافة إلى متابعة « نشيد الحياة » كما اصبح يطلق على تغريد البلابل ، اخذ يفتّ على الحافة البارزة للنافذة قطع الخبز ، لعله يغري الطيور بزيارته ، ولم يخب امله ، ولم تتأخر عليه في الزيارة ! كان الحمام يملأ الحافة ويتدافع فوقها . اصبحت هذه تسلية جديدة : أن يراقب الطيور ، أن يتابعها . ود في اعماقه لو انه لم يبدّد حياته في ذلك الركض من مكان إلى آخر ، إلى أن انتهى في تلك الظهيرة البائسة وبذلك الشكل المذل . لو أنه صرف حياته ، عوضاً عن الركض البائس من مكان إلى آخر ، ي مراقبة الطيور ، والعناية بها ، لكان ذلك اجدى له وانفع . لكن كل شيء يبدو الآن متأخراً ، ودون جدوى . قال لنفسه ، وهو يرتفع قليلاً في الفراش : لكي يراقب زوجاً من الحمام ، وكان متأكداً انهما ذكر وانثى ، وكانا ، من خلال الركض والمداعبة ، يستعدان لفعل شيء ما ، وفي الهواء الطلق ، تحت اشعة الشمس : « اكبر احمق في هذا الكون هو الانسان ، وانا اكبر الحمقى في البشرية ، لأني لم افعل الشيء المناسب في الوقت المناسب » . أما عندما رأى الذكر يعتلي الانثى ، ويمسك مؤخرة رأسها بمنقاره ، ويتمرجح بتلك الطريقة اللذيذة الآخاذة، فقد احس بالنشوة والالم ، وحينما نفضا جسديهما وطارا ، هبط الحكيم في سريره شيئاً فشيئاً ، وقد سيطر عليه الالم وحده !

هكذا كان يقضي ايام النقاهة، ولم يكن مستعجلاً انتهاءها . بل كان على يقين أن وداد وغزوان سيأتيان قبل أن تنتهي . وعلى الرغم من تصميمه أن لا يسمم دمه في تذكر الاشياء التي حصلت ، فقد كان عازماً على أن لا

يفكر بالمستقبل ايضاً « ليتحملوا مسؤولياتهم ، وليقرر كل انسان ما يعتبره أكثر ملاءمة له » هكذا يقول ليقنع نفسه ، فإذا تذكر السلطان بالذات ، أو سمع جلبة تبديل الحرس ، مع صوت زيد الهريدي الآمر، فكان يقول : لينتزعوا اشواكهم بأصابعهم ، ولنرقب لنعرف النتائج ».

سلمى، بين يوم وآخر، تبلغه أن أمها وغزوان اتصلا، وأنهما يسألان عنه ويسلمان عليه، ولا تضيف شيئاً، وفي المقابل يسمع ولا يرد، كما لا يسأل. يهز رأسه وينتظر، مع ابتسامة صغيرة تشي بالحزن، لكن إزاء حزنها وحيرتها لا يستطيع أن يواصل حزنه او أن يعبر عنه.

في أوائل تموز، وقد تماثل للشفاء، إذ نزل إلى الحديقة عدة مرات، وأخذ يتمشى فيها خلال الأوقات التي يقدر أن الآخرين في غرفهم، أو غائبون أو مشغولون بأمورهم الخاصة، في هذا الوقت، وبشكل مفاجىء، وصل خمسة من أبناء السلطان خزعل، ووصلت عدله أيضاً، إضافة إلى عدد من الرجال والنسوة. ومثلما فوجىء بوصولهم، فوجئت سلمى أيضاً، وقد أجريت عدة تبدلات في القصر، من أجل استقبال الضيوف، ولم يعرف ما إذا كان هؤلاء جاءوا بزيارة قصيرة، أو جاءوا ليبقوا.

قال الحكيم ليهدىء من مخاوف سلمى:

ـ زيارة كم يوم، مثل زيارة الأمير.

وحين قلبت شفتها دلالة عدم المعرفة، قال بنبرة جديدة:

ـ وأملك، الله يصلحها، راحت وغابت، ولا كأن ورانا ألف مشكلة.

ومثلما تغير القصر بزيارة الأمير مجحم فقد تغير هذه المرة أيضاً. ومثلما قضى السلطان خلوات طويلة مع أخيه، فقد فعل أيضاً مع أولاده. وإذا كان الحكيم توقع دوراً في الزيارة السابقة، وانتظر، ثم سقط مريضاً، فإن سلمى لازمت غرفتها لا تغادرها، ولا تعرف هل تفرح أم تغضب أم تبكي. كانت أقرب إلى الارتباك والحزن، وإن شعرت بالراحة لأن أحداً لم ينشغل بها ولم يسأل عنها!

بعد ليلة طويلة لم ينم الحكيم خلالها إلا كما ينام الذئب، وقرر أن يتعافى بسرعة، لأن عليه مسؤولية « الطفلة » كما أصبح يسمي سلمى بينه وبين نفسه، قرر أنه يستدعي وداداً . قال لنفسه بحزم: « يجب أن تأتي، جاء غزوان أو لم يجيء، لأنها وحدها التي تستطيع أن تقف الى جانب الطفلة وتساعدها وتحميها. ».

ومع أضواء الفجر بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات، لم ينقصها الإصرار والمثابرة، تحدث الى غزوان. فوجىء غزوان بصوته، أو هكذا قدر الحكيم. وبعد لحظة المفاجأة، حاول أن يعبر عن فرحه واعتذاره في آن واحد، فرحه بشفائه، واعتذاره أنه فضّل الحديث مع سلمى، إذ أبلغتهم أن ذلك أنسب. والحكيم الذي بدا متماسكاً، وتقبل الاعتذار، كان مشغولاً بأمر آخر: بعودة وداد. في لحظة مناسبة طلب أن يكلمها.

كانت وداد، على الطرف الآخر، شديدة اللهفة. أكدت أنها مرضت بمجرد سماعها بمرضه. وقالت ان قلبها عنده في الليل والنهار. وسألت باهتمام ما إذا شفي تماماً أو يشكو من شيء. وأكدت أنها كانت قلقة، وقد عافت الأكل والنوم، الى أن طمأنتها سلمى، وأقسمت لها « أن البابا بألف خير»!

استمع اليها ومشاعره بين الحزن والفرح. حزن لأنه كان في هذا الوضع، وفرح لأن في الدنيا ما يزال من يسأل عنه ويقلق لمرضه. تمنى لو كانت الى جانبه أثناء المرض، لو أنها موجودة لشفي في وقت أقصر. وتذكر كيف ظل يردد على مسامعها، حين تتعرض لتلك الحالات المرضية في موران، أن الصحة والمرض يتعلقان بالارادة أكثر مما يتعلقان بالجسد.

ما كادت تنتهي حتى قال لها بطريقة أقرب الى الهمس:

ـ لازم ترجعي بسرعة يا وداد، لأن رجعتك ضرورية، فهمانة؟

سألت باضطراب:

ـ خير انشاء الله؟ في شي؟

وبعد قليل، وبنفس الاضطراب:

- أنت.. بعدك مرضان؟ في حدا مريض؟

- لا يا وداد، الصحة ماشي الحال، لكن في أشياء ثانية.

- خير؟ خير انشاء الله؟

- الله يجعلك بخير، بس تصلي بنحكي.

- خبرني يا أبو غزوان. شوشت بالي.

قال بنفاد صبر:

- المهم وجودك، يا وداد، لازم تجي بسرعة.

ردت في محاولة لئلا تلتزم بشيء:

- احكِ مع غزوان يا أبو غزوان.

كان غزوان واضحاً وحازماً:

- أنا مقدر ظروفك، يا بابا، وكانت رغبتي أن تكون معنا حتى تحكي، وإذا كان هذا الشي ما حصل حتى الآن، إنشاء الله يحصل في أقرب وقت.

توقف لحظة، ربما نظر الى أمه أو تشاور معها. هكذا قدر الحكيم، ثم تابع:

- أنا يا بابا مسافر بعد بكرة الى موران. عندي هناك أشغال ضرورية، والحكومة طلبت مجيئي بسرعة للتشاور، وأنت تعرف القضايا اللي ارتبطنا بها، ولازم ننفذها، وهذا امتحان لي وللشركة، ولازم تنجح.

وضحك بطريقة معينة وأضاف، وبدا صوته مختلفاً:

- وسمحت لنفسي، يا بابا، أن أتخذ قراراً نيابة عنك: ستراففني الوالدة الى موران، لأنك تعرف أن غيبتنا كلنا، ولفترة طويلة، مضرة، ويمكن أن تُفسَّر وتستغل، فلازم نشوف كيف نرتب أمورنا هناك.

ورغم أنه تحدث مع وداد مرة أخرى، وأشار الى وصول عدلة، ولا يعرف ما إذا جاءت بزيارة أو للإقامة، وبالتالي من الضروري مجيئها، ويمكن أن

تؤجل زيارة موران الى وقت آخر، فقد أكدت أن ذهابها الى موران ضروري «لأن غزوان من رأيه أن أروح معه، وهو مو كل يوم رايح» وسوف لن تتأخر. وتركت لغزوان أن يحاول إقناعه، أو التغلب على ممانعته.

قال له غزوان بمرح:

- الأحسن، للكل، أن تسافر الوالدة معي يا بابا، خاصة وأني سأقابل السلطان فنر، ويمكن أن تحكي بموضوعك وتنهيه.

اختلطت مشاعر الحكيم واضطربت. لأول مرة يسمع اسم فنر مسبوقاً بلقب السلطان، ولأول مرة يبدو صغيراً بنظر نفسه. قال لغزوان بحدة:

- اسمع يا غزوان: إذا رحت لموران فاترك موضوعي، لا تبحثه مع أحد، لأني قادر بنفسي على معالجته.

ضحك غزوان في محاولة لأن يطوق غضب أبيه، ثم تابع:

- بسيطة يا بابا، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

أصيب الحكيم بالانهاك، ووجد أنه عاجز عن الاستمرار في المناقشة. ولما لم يجد شيئاً يقوله، فقد رد بحزن:

- طيب.. طيب يا غزوان.

ولكي لا يترك غزوان لأبيه فجوة، فقد قال بلهجة مرحة:

- راح ابعث لك يا بابا مساعدي ومعه رسالة، وراح تفهم منه كل شيء.

طلب الحكيم أن يكلم وداد من جديد.

- وإذا سافرت متى راح ترجعي؟

ما راح أطول يا أبو غزوان.

ضحكت بطريقتها، وسألته:

- توصيني على شي، يا أبو غزوان؟

- أبداً.. أبداً، يا وداد، بس ديري بالك على حالك ولا تطولي!

وصول الأميرة عدلة، زوجة السلطان، وعدد من أولاده، الى بادن بادن غيّر الكثير.

الأيام الأولى لهفة وشوق، وشكر الله أن الجميع ما زالوا أحياء، وأنهم استطاعوا النجاة، «وكل شيء، ما دام الإنسان حي، سهل» والحمدو لأن طويل العمر بالصحة والسلامة، والأشياء الثانية يجي وقتها».

بدا السلطان خلال هذه الأيام أقوى وأكثر ثقة، أما الأسئلة التي وجهها للقادمين فكانت بمثابة اختبارات حذرة، إذ لم تتعد معرفة كيف وقعت الأحداث، وكيف عرفوا بها، وأين كانوا، وماذا كان رد الفعل، وكيف استقبل الناس هذه التغيرات.

في الأيام التالية كان حريصاً على معرفة أدق التفاصيل، وحريصاً أكثر على معرفة موقف كل فرد. سأل عن موقف حامية القصر، وعن الضباط، وجهاز الأمن والسلامة التابع للقصر. ولم ينس السؤال عن موقف الحرس الخاص، وعدد من المرافقين والخدم. ومن اتصل بالقصر ومن زاره.

الأميرة عدلة والأولاد، واشترك أيضاً بعض المرافقين، أجابوا عن الأسئلة بدقة كبيرة، واوردوا تفاصيل لا نهاية لها، كما أجابوا أيضاً عن أسئلة افترضوا أنها تهم السلطان. ورغم الاختلافات والمقاطعات، وما تخللها من طرائف أو ردود فعل، كتخزين المياه والطحين، وإغلاق الأبواب الداخلية بمفاتيح

وأقفال، ونوبات الحراسة التي باشرها الجميع خلال الأيام الثلاثة الأولى، بما في ذلك النسوة، وعلى مدار ساعات الليل والنهار... هذه التفاصيل التي عرضت رافق بعضها ابتسامات أو نظرات أقرب الى التحذير واللوم، خاصة من الأخوة الكبار، أو من المسنين، لمن هم دونهم.

بعد أن أصبح السلطان ملماً بكل هذه التفاصيل، واخرى غيرها، وعلى دراية بمواقف معظم الذين كانوا يحيطون به، أو بالآخرين، وفي الليلة الرابعة أو الخامسة لوصول هؤلاء، وفي الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي من القصر، وكان أغلب الذين وصلوا يتحلقون حوله، قال السلطان بصوت عميق:

- من الآن، وبعد اللي صار، وبعد اللي شفناه، يلزم الواحد يفتّح عينه، ويلزم يعرف كيف يختار رجاله، ولمن يعطي سره!

وزفر مثل جمل وأكمل:

- وإذا الله ردنا بالخير والسلامة، يلزم تتذكر كل شيء، لأن مثل هذا الدرس يعلّم اللي ما يتعلم.

وحين خيم الصمت، ولا أحد يعرف كيف يواصل الحديث، وقد مرت صور كثيرة في ذاكرة السلطان، أضاف بلهجة حانقة أقرب الى الغضب:

- يا جماعة الخير. ما تركنا أحد منهم إلا ونشدناه: شلون تشوف الأحوال يا فلان؟ شلون رضا الناس وراحتهم؟ وكلهم يحمدون ويشكرون، وإذا زادوا يقولون: أحسن من كذا أبد ما تلقى يا طويل العمر.

وبعد قليل وهو يهز رأسه بلوعة:

- حتى فتر لما نشدناه، وفتح حلقه، قال: «الأمور بخير، والدنيا بخير، وحنا شاكرين، وما نريد أي شيء». وأنا، بكل نية طيبة. أسأل: أخاف تكونون

محتاجين شي يا جماعة الخير؟ أخاف تريدون شي؟ ونقولون « سلامتك يا طويل العمر، وانشاء الله دايم فوق روسنا يا طويل العمر ». وراح يوم، وجا الثاني، ويا غافل لك ربك، أشاريهم من ورا ظهري يدبرون ويتآمرون. وبعدتي ما ركبت وطرت إلا ودق الطوب، وصار اللي صار!

وزفر، وخرج صوته خشناً، لكنه بطيء:

- ما يخالف، الواحد يتعلم، ويجي يوم ونتحاسب. يجي يوم ونتواجه، وإذا بيهم حيل ومرجلة خلهم يبيّنون!

قالت روقة، خادمة الأميرة عدلة، بصوت خافت، لم يسمعه إلا من كان حولها::

- أخاف ما يجي هذا اليوم!

التفت السلطان ناحية الصوت، وسأل:

- شنهو اللي قلتيه؟

- سلامتك، طال عمرك، أدردم وي نفسي!

هكذا ردت روقة، وقد تملكها الخوف. قال زيد الهريدي، وخرج صوته من بين أسنانه:

- جماعتنا، اللي أمناهم، يا طويل العمر، هم اللي خانونا، نكتوا بنا.

قال شايع السحيمي بعصبية:

- يا زيد، هذي ما هي سالفة يوم واثنين، هذي تدبير سنين. والجماعة هناك كانوا ينتظرون طويل العمر يمشي حتى يسووا فعلتهم. ومن المؤكد أنهم رابطينها من مشرّق لمغرّب، وإلا ما نجحت وصار اللي صار.

- وجماعتنا، يا شايع؟ وين جماعتنا؟

- جماعتنا، يا زيد، بين اللي شروه، وبين اللي سحروه ودوخوه. واللي

ما انشرى وما داخ تنبل ما يدري كوعه من بوعه، أو نايم نومة أهل الكهف.

تلفت زيد في أكثر من اتجاه، يريد مؤيداً أو حليفاً. تابع شايع السحيمي دون أن يأبه لنظرات زيد:

- ويلزم نعترف، يا زيد، ومثل ما قال طويل العمر: حنا كنا نايمين على حرير، فصدقنا كل اللي ينقال لنا، كل اللي نسمعه، ولا هو ببالنا أن فنر وغير فنر يغزلون بالليل والنهار، ويركضون من هنا لهنا يدبرون ويتآمرون.

- حطينا كل ثقتنا بحماد، يا شايع، بحماد وأمثال حماد، وأثاري هذول اللي جانا منهم البلا، هذول اللي يقولون الدنيا بخير والناس راضية. كانوا يريدونا نصدقهم، وصدقناهم. وبعدها تدردبت المصايب فوق روسنا

قال السلطان بحقد:

- والله . . والله إذا ظفرت بابن هالحرام حماد، لا خليه يشتهي الموت وما يحصلّه!

وبعد لحظات صمت طويلة:

- كل يوم والثاني يجيني: « تقارير الجهاز، يا طويل العمر: الناس شبعانة وراضية، والدنيا بألف خير ». وأنا أقول له: يا حماد، فتّح قلبك قبل ما تفتح عينك، لأن هذي موران ما يتحرز عليها، وناس موران ضحكتهم شبر، والخنجر تحت البشت، فإذا سهيت عنهم دقيقة غدروا بك. ويجاوب حماد ويقول: «حنا تحرينا وتأكدنا يا طويل العمر، وما يكون لك فكر » ولما وقعت الواقعة أثاري حماد براس القايمة، وهو، بعد فنر، أبوها وأمها!

ووقف السلطان بعصبية. مشى خطوتين، وكان بادي الانفعال، ثم عاد بسرعةوكأنه لام نفسه، وبعد أن هدأ قليلاً، قال كأنه يكلم نفسه:

- القضية، يا جماعة الخير، أكبر من حماد، وأكبر من فنر. . .

وبعد قليل:

ـ لكن بسيطة، تهون، والله كريم.

قالت عدلة بصوت رخو، أقرب الى التشفي:

ـ حنا ثارنا عند اللي خانونا، عند فنر وحماد...

وأضافت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ وأمثالهم!

والأميرة عدلة حين تتحدث بهذه الطريقة، فإن دلالة كلماتها لا تخفى، أكثر من ذلك تحرض الجميع لأن يلتفتوا الى العدو القريب، العدو الذي يستطيعون أن ينتقموا منه، بدل الالتفات الى موران البعيدة.

سأل مجلي، أكبر الأبناء الذين وصلوا:

ـ من تقصدين؟

ـ ردت بنفس اللهجة الرخوة:

ـ يا وليدي.. من هو حماد، بليا اللي جابوا حماد، اللي حموا حماد؟

رد السلطان بغضب:

ـ أنت يا عدلة مالك شغل بهذي السوالف، خلي الرجال يتكلمون!

قالت وكأنها لم تسمع:

ـ والخوف ما هو بس من اللي صار وجرى، الخوف، هالحين، من اللي حايفين حولنا، وإذا نام الناس ما ينامون!

ولم يتأخر السلطان في أن ينهض، ايذاناً أن الحديث انتهى، قال وهو يمشي:

ـ ما هو كل اللي ينعرف ينقال، وحرام أن الواحد يجرب سلاحه بميت.

كان السلطان واضحاً في رده على الذين يفترضون أن الحكيم وراء كل ما حصل. لم يرد أن يسميه، لأنه يعرف أن لا أحد معه أو يمكن أن يدافع عنه.

في الليل المتأخر، وقد ترك السلطان جناحه وجاء ليقضي باقي ليلته عند عدلة، قالت له، وكانت أكثر وضوحا وحزما:

ـ كل البلاوي، يا طويل العمر، جتنا من هذا خويك، الحكيم. هو اللي يفتي وهو اللي يحكي. مهفهف ومخفخف، وما ينـدري يفتي لإبليس أو لرب العالمين، وما ينعرف شنهو اللي بباله وشنهو اللي يريده.

ولأن السلطان كان متعباً، ومستعداً لأن يسمع كل شيء، دون قدرة أو رغبة في الرد، تركها تتكلم:

ـ وإذا لنا أمل، والحظ ساعدنا، يا طويل العمر، ورجعنا؛ وإذا الناس بعدها تحبنا وتريدنا، فأول شي تسويه أن هالإبن الحرام يتركنا، يكفينا شره، لأنه من يوم ما شفناه، ما شفنا الخير، ومن يوم ما عرفنا، وقال: أنا خوي السلطان، الناس تحكي وتقول. فشوري عليك، يا بعد قلبي وعيني، وشرهتي منك، أن تتركه، وأن تقول له: هذا حدّك ويانا، وبعدها تشوف شلون الخير يجيك!

رد السلطان برخاوة:

ـ أنت ما تعرفين الناس، يا بنت الحلال!

ماءت بضحكتها مثل قطة، وتساءلت:

ـ أنا ما أعرف الناس؟

ـ أنت ما تعرفين شي؟

اقتربت منه كثيراً، أطفأت النور، وهمست:

ـ ما يخالف، أنا ما أعرف، بس أنت، بروحك، راح تشوف!

ويزداد القصر في بادن بادن اضطراباً. فأولاد السلطان، الذين كانوا صغاراً في موران كبروا فجأة. كبروا من الهزيمة ورغبة الانتقام، ولأنهم حملوا مقداراً كبيراً من المال، خاصة من الذهب والمجوهرات، ولأن الأميرة عدلة، أيضاً، أصبحت امرأة أخرى!

فما كادوا يتأقلمون مع الجو الجديد، حتى أصبحوا أكثر جرأة، وأكثر وضوحاً.

قال مجلي، وهو الابن الرابع للسلطان، والثاني لعدلة، قال لأبيه:

ـ لي كلمة معك، يا طويل العمر، وأريدك ما تزعل مني.

فوجىء السلطان، فقد كان يعتبر مجلي خجولاً، قال وهو يضحك:

ـ أي يا وليدي، اريدك تسولف، لأن موران وناس موران نسّوا الواحد صلاته، وما خلونا نشوف بعضنا زين، ولا سولفنا.

خجل مجلي وكاد يتوقف أو يعتذر، لأن ما لديه ليس الحديث الذي يفرح، أو يقيم حواراً أو علاقة، إلا أن نظرات السلطان المستطلعة، المشجعة والدافقة، جعلته يواصل:

ـ يجوز كلامي، يا طويل العمر، ما يعجب، بس يلزم أقوله، ويلزم تعرفه.

ـ قل يا وليدي، ولا تخف.

ـ ما ظل أحد بموران إلا وقال لي: بعد ما تبلغ طويل العمر السلام، تقول له

هذا خويه، نسيبه الجديد، إذا تركه اليوم قبل باكر أخير له وأحسن.

ـ شلون يا وليدي؟

ـ ما أدري، طال عمرك، بس الناس تقول أنه أصل المصايب.

رد السلطان بهدوء، وهو يكظم غيظه:

ـ يا وليدي المصايب من الله، ما هي من العبد، وكلام الناس واجد، وما أريدك تصدق كل ما تسمعه.

ـ موران ما عندها سالفة إلا الحكيم، يا طويل العمر، والناس يقولون: كل اللي صار لأن السلطان ناسب الحكيم.

ـ اللؤم ذابح الناس، يا وليدي، والحسد عامي عيونهم وقلوبهم، ويلزمك تعرف: لا أحد يرضي الناس، حتى لو شعلت لهم أصابعك شموع.

قال مجلي بإنفعال:

ـ حتى أعمامنا يقولون: لو أن السلطان ما حط يده بيد الحكيم، لو ما ناسبه، كانت الأمور ما وصلت هالمواصيل.

ـ أعمامك، يا مجلي، يا وليدي، يدورون حجة، ولأنهم ما لقوا، حطوها براس هالمسخوط...

وبعد قليل وبحنق:

ـ بنفسي لو واحد منهم جاني، واجهني وقال لي: ما نريد فلان، حنا ما راضين عن فلان. لكن أبد. الكل يحمدون ويشكرون، والكل يقولون: الحكيم، أبو غزوان، ما مثله لا بالهند ولا بالسند. لكن بعد ما سووا سواياتهم يريدون حجة وسبب، فقالوا: الحكيم!

وزفر فخرج صوته حاراً مديداً:

ـ يا وليدي القضية أكبر وأكبر من الحكيم. ولو ما كان هو لقوا غيره. المهم:

يخلصــون من أبوك يــا مجلي. هـذول طــالبين ملك وحكم، وهـذا اللي يريدونه، والحجة دايماً موجودة وسهلة.

ـ لكن حنا، يا طويل العمر، عطيناهم السكين اللي ذبحونا بها.

ـ مثل الذيب والعنز، يا وليدي، إذا شربت العنز من راس النبع أو من حدر السيل عكّرت الماء على الذيب ويلزمها تنذبح، هذي هي سالفتنا مع أعمامك يا مجلي، وكل كلام غير هذا لا تصدقه، لا تشيله من ارضه، لأنه ما هو بصحيح.

وانتهى الحديث مع السلطان، هذه المرة، عند هذا الحد. أما مع آخرين فقد أخذ شكلاً مختلفاً.

ولأن مجلي الأخ الأكبر بين الذين وصلوا من أولاد السلطان، ولأن المال ظل معه، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه وبين أمه، فقد أصبح يوماً بعد آخر، بعد أن تعود على الجو وطرق المواصلات، وعرف الذين يحيطون بالسلطان، أقوى الأشخاص، والذي يقرر في أمور كثيرة.

كان مجلي طويلاً مثل أبيه، وماكراً مثل أمه، أما حدة الطبع التي كانت تميز بعض مواقفه، فتعزوها الأم الى داء المرارة الذي ورثه عن عمه فنر! كان خجولاً أقرب الى الانطواء، لكنه يمتلك تأثيراً خفياً على الآخرين، وقد لاحظ ذلك أبوه منذ وقت مبكر، ثم جاء من أكد له ذلك. وإذا كان قد أهمله، أو انشغل عنه في موران، فقد أصبح الآن شيئاً مختلفاً. ولذلك بذل معه جهداً كبيراً. قضى وإياه ساعات طويلة، كانا يتمشيان ساعات في الحديقة الخلفية كل يوم، صباحاً وعند الغروب. كما أسر لعدلة أن تبذل معه جهداً خاصاً. ومجلي الذي يدرك جزءاً من اللعبة، ويحس أن معاملته اختلفت عن السابق، بدأ يشعر بالثقة والقوة معاً، تخلى عن خجله، أو عن جزء منه على الأقل، وأصبح يهيّئ نفسه أن يكون الأقوى في قصر بادن بادن.

قال لزيد الهريبدي في اليوم الثالث، بعد ذاك الحديث مع أبيه:

ـ ... وأنت، يا عم زيد، طويل العمر يسرّك ويسمع منك...

فتح زيد عينيه وابتسم، وقد تقدم بوجهه وبجزء من جسده ليعرف بقية الحديث:

ـ والجماعة بموران وصوني وقالوا لي: ما دام الحكيم هو اللي يفتي ويشوّر ترى السلطان ما يرجع!

دمدم زيد بكلمات غير واضحة، لكن لا تخفى، دلالتها كشتيمة. ولو لم يكن يريد أن يعرف أكثر، فلا ينساق لعواطفه، لواصل شتائمه. لكنه كتم غيظه، نظر بتحديد الى مجلي، وسأل:

ـ وشنهو بعد اللي قالوه بموران؟

ـ السوالف كثيرة يا شيخ، بس الكل يقولون أن الحكيم أصل المصايب، وأول شيء يلزم يصير ويتسوى، انه يمشي، يفارق.

ـ هذا الكلام ما يوكل خبز، الله يسلمك، إلا إذا كان كلام فنر أو واحد مثله.

وبعد قليل وبمكر:

ـ من هو اللي قاله؟

ـ قاله لي الدريعي، وأنت تعرف علاقته بعمي فنر. قاله لي قبل السفر بيوم.

ـ وبعد شنهو اللي قاله؟

ـ هذا اللي قاله.

ـ وهذا رأيه أو رأي صاحب قصر السعد؟

ـ ما أدري يا شيخ زيد، بس هذا الكلام من راسه لراسي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هذا الخرندعي، الحكيم، سالفته هينة، الله يسلمك، نقدر نهججه، إذا ما

هو اليوم اللي عقبه، نخوّفه، تسلّط عليه الجماعة...

ابتسم، وتطلع بتحديد الى مجلي، ثم أضاف:

- بس اللي ما يندري عنه علاقة طويل العمر ببنته...

وابتسم أكثر، وكأنه إكتشف الحل. قالت ذلك تعابير وجهه كلها:

- إلا إذا الوالدة ساعدتنا!

التفت الى أكثر من جهة، وبعد قليل بهمس فتآمر:

- ومثل ما زوّجته من قبل، ومثل ما كانت تحاوبه: أطلب وتمنى، إذا قال: حنّيت واشتهيت، وواحدة تجي وواحدة تروح، فإذا طال عمرها بعثت على فلانة وفلانه، وواحدة بعد الثانية، وهي تعرف من، ترى تصير سالفتنا سهلة، ويوم والثاني ما تشوف الحكيم إلا حمّل ومشى!

قال مجلي بانفعال:

- أترك هذي القضية عليّ.

- إذن سالفتنا، الله يسلمك، خالصة.

لم تكن عدلة تحتاج إلى من يطلب منها، أو من يحرضها على أداء مهمة من هذا النوع، فقد بدأت المهمة قبل أن تبدأ. وإذا كانت قد خبرت السلطان طوال السنين السابقة، وعرفت مزاجه، كما قامت بتزويجه المرة بعد الأخرى، فقد كانت هذه المرة غير متأكدة، ولا تعرف لماذا يبدو السلطان ضعيفاً مأخوذاً هكذا.

قدّرت أن لا غنى له عن الحكيم، لأن الأدوية التي تزداد وتتنوع بين فترة وأخرى، هي التي تجعل السلطان يشعر باستمرار الشباب، لكن لا يفسر هذا السبب شدة تعلق السلطان به، لأن مثل هذه المهمة، وهذه العلاقة، ليس جديداً. واستعادت عدلة، في ذاكرتها، الدعوات التي وجهت للسلطان،

والزيارات التي قام بها لبيت الحكيم أو في المليحة، وتساءلت ما إذا وضع له سحراً في الأكل الذي تناوله فغيّره؟ وشكّت في أن يكون سحر وداد لهذه الدرجة من القوة والاستمرار. وهذه الفتاة الصغيرة، الأقرب الى اللعبة، هل تملك من البراعة والمعرفة ما يجعلها تؤثر عليه الى هذه الدرجة؟ تتذكر كيف ابتسمت وداد حين نبهتها ليلة الدخلة، كانت الابتسامة الساخرة تقول: لا عليك، تعرف كل شيء، وسلمى مستعدة لكل شيء!

الآن، في بادن بادن، وبعد أن انقضى شهران على الزواج، وحين تتطلع عدلة الى الاثنين، تجدهما مثل الحبال المبلولة: رخوين، مأخوذين، ولا يملّان.

تريد الأميرة عدلة أن تكتشف هذه الفتاة ـ اللعبة، من جديد، ومدى تعلق السلطان بها، إذا جاءت غيرها.

بدت سلمى مثل طالبات المدارس الداخلية: خجولة، مؤدبة، وبعض الأحيان شديدة الارتباك؛ أو كأنها ابنة الجيران التي جيء بها للاختبار، دون أن تدري ودون ان تستعد. كانت تتحرك بخفة، تبتسم للجميع، وفي بعض اللحظات تحتار وتكاد تبكي لأنها لا تعرف ما يقال، أو لا تعرف هذا الذي يقال هل هو سؤال أم ثناء أم شيء لا يقع تحت أي من هذه التسميات!

قالت عدلة لنفسها، وقد سيطرت عليها الحيرة: «الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولكنهم لا يعرفون المرأة. أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمون، والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها، رغم أنها تكون عارية بين أيديهم». توصلت الى هذه القناعة، وهي تتمعن النظر بهذه الطفلة الغرة، والتي لا تملك إلا مقداراً ضئيلاً من اللحم على ردفيها.

سألت خادمتها روفة بسخرية:

- ما تقولي لي يا مسخوطة: هذي لعابة أو آدمية؟

ورغم أن روفة تعرف عمن تسأل سيدتها، فقد تساءلت ببلاهة :

ـ عمن تسأليني ، يا عمتي؟

ـ عن المصّبغة المعظّمة، اللي البس باكل عشاها وهي تناظره وما تقول له: بس.

ـ تلحق وتصير، يا عمتي ، ويصير عليها لحم ما دام عظمها زين.

ـ عظمها زين؟ الله لا يخلي فيك عظم سالم!

تضحك روفة ، وبعد قليل :

ـ حزري عليها، يا عمتي ، أنها آدمية وبنت حلال.

ـ وبعد؟

ـ ضحكتها تشفع وخدها يلمع ، ويا أسنانها نظم اللولو. . .

ـ وبعد، يا بنت الحرام؟

ـ إذا هذا الكلام ما يعجب ستي ، عندي غيره كلام!

كانت روفة امرأة ضخمة، ثقيلة الحركة، أقرب الى البطة إذا مشت، وأقرب الى الحصان إذا فتحت حلقها. تعرف كيف تسخر، وكيف تضايق، ولولا خفة دمها، وتحملها للشتائم، وبعض الأحيان للمقالب، لما استمرت.

ما كادت بضعة أيام تمر، وعندما تأكدت أن سيدتها تريد التخلص من هذه الوافدة، حتى بدأت :

ـ راح أدبي عليها، يا ستي ، ومنها كلمة ومني كلمة ونشوف!

ومن خلال الأسئلة والاستفسارات، أو وهي تنظر اليها تقيها، مع الابتسامة، التي تقع عند الحد الفاصل بين السخرية والطيبة، تبدأ رحلتها اليومية مع سلمى.

وفي إطار الاختبار اليومي ، والذي لم يطل ، وبعد أن سألتها بطريقة لا تخلو من عهر، كيف تستلقي ، وكيف يأتيها السلطان ، وعن أعضائها وأعضائه، وهل تستمتع ومتى ، ومن قبل الآخر ، وهذه الفتاة المرتبكة الخائفة لا تعرف هل تجيب أم تبكي أم تهرب. بعد هذه الجولة من الاكتشاف والاستطلاع توصلت الى الطريقة المناسبة للتعامل.

بدأت عشرات النظرات الساخرة تطاردها، وبدأت همسات الخدم تلاحقها. ومهما حاولت أن تهرب، أن ترابط في غرفتها، فقد كانت أصوات « الجيش » الذي وصل من موران تصلها، تقطع عليها الطريق، تقتحم غرفتها، وبعض الأحيان، بحجة الخطأ أو السؤال عن شيء من الأشياء!

وسلمى التي كانت ترتبك أصبحت الآن تعيش في حالة من الفزع الدائم. كانت تغلق على نفسها الغرفة من الداخل. فإذا دعيت لتناول الطعام توافق مرة وترفض مرات، فإذا جاءها السلطان ووجد الباب مغلقاً، وترفض الاستجابة للدقات، إلا إذا عرفته وتأكدت بعد أن أصبح الباب يدق بعدد أرباع الساعات فقد توتر الجو، ووصل الى حد الخطر. .

وعدلة المرأة التي لا يمكن أن يحزر أحد عمرها، ولا يعرف إن كانت أماً للاولاد الذين حولها أم أختاً كبيرة، استطاعت خلال أيام قليلة أن تتغير تماماً، وربما بتأثير الجو والرطوبة. فالوجه القاسي الذي رافقها من موران، وزادته الزرقة، خاصة حول العينين، نتيجة التعب وقلة النوم في الأيام التالية، ما لبث أن استراح وتغير، بعد أن استخرجت من حقائبها مجموعة من النباتات، فاغتسلت ببعضها، وصبغت شعرها ببعضها الآخر، وتبخرت بقسم ثالث، فبدت امرأة مختلفة تماماً، حتى بنظر السلطان. ورافق ذلك أيضاً نوع من المرح والأحاديث خلقتها الحالة النفسية بهدف نسيان وتجاوز المصاعب التي كانت تواجه الجميع.

بهذه الطريقة البدائية الماكرة تولد جو أنعش السلطان، أصبح أكثر استعداداً لأن يصدق ما يقال له عن الحكيم أولاً، ثم عن « اللعابة » « أم وزنة ونص »

كمـا أصبح يطلق على سلمى . أما حين نقل إليه ما قالته روقة ، وقد استدعتها عدلة ، لتقول له بلسانها ما سمعته منها عن رائحته وقسوته وثقل جسده ، وكيف أنه يستعمل أسنانه ولسانه ، وأنها تتأذى من ذلك ولا تتحمله ، ثم امتناعها عن فتح الباب له متعمدة ، رغم أنها تعرف دقاته ، فقد تأكد أن أيامها معه أوشكت أن تنتهي .

صفاء الشلبي ليس مجرد مساعد لغزوان، انه أخ شقيق: الشبه، المرح، التعلق بالحياة، إضافة الى اللياقة الاجتماعية. يعرف أدق التفاصيل المتعلقة بعائلة المحملجي، وكأنه أحد أفراد هذه العائلة. أما الذكاء والنباهة وإمكانية إقامة علاقات مع الآخرين، فإنها صفات أصيلة وليست مكتسبة «تماماً مثلما هي عند غزوان» هكذا قال الحكيم لنفسه بعد جولتين من المناقشة.

وصل صفاء بعد ثلاثة أيام من المكالمة التلفونية مع غزوان، أو كما قال للحكيم:

ـ بعد أن أقلعت الطائرة بالأستاذ غزوان والوالدة الى لندن، في طريقها الى موران، بخمس وأربعين ددقيقة أقلعت طائرتي الى هامبورغ. قضيت الليلة الفائتة في هامبورغ، وها أنذا الآن بين يديكم!

وقبل أن يقدم رسالة غزوان قدم الهدايا. كانت كثيرة ومتنوعة، وأغلبها لسلمى. أما الرسالة التي تسلمها الحكيم، ووضعها في جيبه، على أن يقرأها في وقت لاحق، وبمفرده، فقد كانت تقلقه. أو بالأحرى كانت مثل جمرة في جيبه. حاول أن يستفسر من صفاء لماذا لم يجيء غزوان، وما إذا كانت رحلته الى موران، وفي هذا الوقت بالذات، ضرورية أم لا، وأيضاً رحلة أم غزوان. أجاب صفاء عن الأسئلة بالكثير من التهذيب والمعرفة ، وأباح لنفسه نوعاً من الجرأة خاصة بعد أن روى بعض الملابسات الضاحكة التي وقعت لأم غزوان في مطار نيويورك. كان لا يكف عن الإشارة بقدرة الحكيم وحكمته في أنه يتفهم الأسباب التي منعت غزوان من المجيء.

لم يقرأ الحكيم الرسالة إلا بعد أن قام بجميع مراسيمه: تمدد في الفراش، رفع يديه في الهواء وجرّ نفسين عميقين، كما كان يفعل، ثم فض الرسالة بعد أن تمعن بالعنوان، كانت الرسالة كما يلي:

والدي العزيز

أقبل يدك الكريمة، وأقبل وجنتيك الطاهرتين، وبعد:

الوالدة العزيزة بصحة جيدة، وقد سررت بلقائها، وتنسمت فيها رائحتكم الزكية، وقد أبلغتني بأخبار الجميع.

إذا سألت عني، يا والدي العزيز، فأنا، برضاك ورضا الوالدة، في صحة جيدة، وأحوالي في العمل تسير من حسن الى أحسن.

والدي العزيز، أنا مشتاق لسلمى كثيراً، ولقد فرحت وحزنت للأخبار الأخيرة، ومع ذلك أتمنى لها التوفيق في حياتها.

والدي العزيز

أبعث اليك بهذه الرسالة لكي أوضح لك وجهة نظري بالنسبة لأمور أساسية حدثت في الفترة الأخيرة، وأرجو أن أسمع منك رداً.

مثلما علمتني، وكما تعلمت منك، وأخيراً مثلما تعلمت في الولايات المتحدة: يجب على الإنسان أن يحدد لنفسه هدفاً في الحياة، وهذا الهدف هو الذي يقود خطواته، ويحدد مواقفه وعلاقاته. وأنا، يا والدي العزيز، منذ أن عملت في ميدان الأعمال الحرة، اعتبرت أن الثروة، والثروة وحدها، هي الهدف، ولذلك فإن السؤال الأساسي الذي أطرحه على نفسي صباح مساء، هو: كيف أستطيع أن أصل الى الثروة، وكيف أصبح ثرياً.

اشعر بعجز أو بصعوبة لتفسير أفكاري، خاصة في مجال العلاقات بالسلطة، فأنا اعتبر أن موران الدولة هي الأساس، وهي التي يجب أن أتوجه اليها وأن أتعامل معها، لأن موران ليست السلطان خزعل أو غيره. موران هي الكيان، هي الثروة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه باستمرار.

لا أنكر أن السلطان خزعل ابتعثني وأنفق على دراستي، وكان يحبني. أكثر من ذلك تزوج أختي، ولكن إذا أردت أن أصل الى هدفي فلا بد أن أميز بين أمور كثيرة، لأن الخطأ، في مثل هذه الحالات، قاتل ومدمر. وإذا كنت في السابق قد تعاملت مع السلطان خزعل، وكنت قريباً منه، فلأنه كان يمثل موران، ولأنه كان قادراً على تقريبي من هدفي، فإذا اختلفت المعادلة الآن فلا بد أن أعيد النظر، وأن آخذ بعين الاعتبار الظروف الجديدة.

لا زلت أتذكر بوضوح تلك العبارة التي كان البروفسور ماكتلي لا يمل من ترديدها على مسامعنا في الجامعة: يجب أن تميز دائماً بين الرأسمال والإدارة. الرأسمال باق، وهو الأساس، وهو الذي يشكل القوة والهدف، أما الإدارة فإنها قابلة للتغير باستمرار، وقابلة للتطور، تبعاً لما تمليه حاجات الرأسمال وضروراته.

هذا المثل، يا والدي العزيز، ينطبق على ما نحن فيه، وبالتالي يحدد طريقة التعامل. فالحكومة، أية حكومة، هي الادارة، وهذه الإدارة قابلة للتغير باستمرار، أما الدول فهي وحدها الباقية والمستمرة، ولذلك فإن ما يعنينا هو الدول وليس الحكومات، إلا بمقدار ما يحصل التطابق.

واسمح لي، يا والدي العزيز، أن أعبر عن قضية شديدة الحساسية، وهي أن الإدارة السابقة لموران انتهت، ولذلك لا حاجة للتشبث أو الوهم، خاصة من قبل عائلة المحملجي. ولا أخطىء إذا قلت العكس. فالمهم الآن أن نقيم علاقات جديدة، لكي نزيل من أذهان البعض أننا محسوبون على الإدارة السابقة، وهذا ما أحاول أن أفعله الآن، سواء من حيث تنفيذ العقود السابقة، أو من حيث إبرام عقود جديدة. بهذه الطريقة يمكن أن نفرض وجودنا مرة أخرى، ويمكن أن تسمح بعودتك من جديد.

ومن هذه الزاوية يجب أن تفهم عدم وجود مصلحة أو ضرورة لزيارتي المانيا. وحتى لو أردت زيارتها يجب ألا تقبل، لأن الحساسية الموجودة في الوقت الحاضر يمكن أن تؤثر على أوضاعنا لفترة غير قصيرة.

ومن هذه الزاوية ارتأينا أنا والوالدة ضرورة قيامها بزيارة موران، إذ علينا أن

تميز بين الأمور الشخصية والعاطفية وبين المصالح المادية والمستقبل. وأنت تعرف أن الرزق الذي تركته في موران إذا نسي، أو لم يتابع، يمكن أن يتناهبه الطامعون، وهم كثيرون، ونحن حريصون عليه، ليس فقط كقيمة مادية، وإنما كقيمة معنوية أيضاً، خاصة انك تعبت وشقيت وأفنيت عمرك من أجله. وهذا الموضوع الذي قررته أنا والوالدة فيه اعتراف بالجميل وتقدير للجهد الذي بذلته.

والدي العزيز

هذا ما أردت توضيحه في هذه الرسالة، وفي حال وجود استفسارات يمكن أن تستوضح بشأنها السيد صفاء، وهو موضع ثقتي، ويعرف الكثير من التفاصيل. وسوف أتصل بك بعد عودتي من موران واطلعك على الموقف، وسأبذل جهدي لكي نلتقي في مكان ملائم.

وتقبل في الختام مودتي واحترامي، كما أقبل يدك الكريمة، ووجنتيك الطاهرتين، راجياً أن تبلغ الشقيقة سلمى تحياتي.

ولدك المحب والمخلص
غزوان

قرأ الحكيم الرسالة مرة أخرى وثالثة، وأشّر على بعض العبارات، ورغم أنه كان موافقاً، بصورة عامة، على الموقف، إلا أنه يحس بعدم قدرته على استيعابه. ولكي لا يقع في أخطاء، كما حصل في حالات سابقة مماثلة، قرر أن يتريث وأن يستوضح صفاء بعض النقاط. أما مسألة أن يكتب أو لا يكتب لغزوان فلن يقررها إلا في المرحلة الأخيرة، بعد أن يمعن النظر والتفكير فيما يجب أن يُعمل، وبعد أن يستكمل جميع التفاصيل. وإذا كتب، ولن تكون كتابته رداً على هذه الرسالة، وإنما ستتعداها الى تلخيص فلسفته في الحياة، وربما من الأفضل الا يفعل ذلك الآن، في ظل الظروف النفسية التي يعيشها، إذ قد تظهر من خلال الكلمات أو ظلالها، وربما أثرت على غزوان وعلى مشاريعه.

وفكر أن يستعيض عن الرسالة بمجموعة من الأفكار يدوّنها تحت عنوان:

« أوراق الغربة » أو « ذاكرة الأيام » ويضمنها تحليلاً وتقييماً لما حصل ، ويمكن أن تكون موسعة ودقيقة، لعلها تصبح درسا وعظة للأجيال اللاحقة، خاصة لأبنائه. ولام نفسه أنه لم يسجل يومياته، لو أنه فعل لأصبحت له الآن ذخراً، إذ من خلالها يستطيع أن يستعيد الوقائع واحدة واحدة، دون سهو أو خطأ، وربما كتب تاريخاً لمرحلة مهمة.

وشعر بالانقباض لأن أموراً أساسية كان يجب أن ينجزها في فترات سابقة، لكن مشاغل الحياة اليومية منعته من ذلك. كان يفكر على وجه محدد بالنظرية. انها الأساس وكل ما عداها فروع وتفاصيل. وها هو الآن، بعد سنوات من الاستعداد والتحضير، يراوح في مكانه. لم ينجز شيئاً يعتز به، وحتى الأشياء المادية التي حققها تبدو له الآن عرضة لمخاطر لا نهاية لها، إذ ربما يطمع بها، ومن الشركاء بشكل خاص، وعلى التحديد بعض الأمراء ، وقد يستغلون غضب فنر عليه، ويضعون أيديهم على الأراضي والعقارات التي له. انهم قادرون، وضمائرهم لا تمنعهم. وتذكر وقائع معينة حصلت بمعرفته، لكن اعتبر نفسه غير مسؤول.

وتأكد تلك اللحظة أن سفر غزوان ووداد يمثل منتهى الحكمة والنضوج. يجب أن تحمى الممتلكات، لأن لا فائدة من ندب الماضي. وشعر بالاعتزاز لأنه احتاط منذ وقت مبكر وسجل أكثر هذه الممتلكات بأسماء وداد والأولاد. وشعر باعتزاز مماثل لأنه استطاع غرس بعض العادات والتقاليد في العائلة. وها هو غزوان يدرك ويعترف فيقول له في الرسالة: إن قيمة الرزق لا تحدد بمقابل مادي فقط وإنما بمقابل معنوي أيضاً، كونه يمثل تعبه والارتباط به.

وكاد يكتب رسالة قصيرة قبل أن ينام يشير فيها الى هذه النقطة بالذات، لكن شعر أنه غير متحمس بالمقدار الكافي. أكثر من ذلك اعتبر القضايا كلاً واحداً غير قابل للتجزئة، فاما أن يكتب أو لا يكتب.

نام تلك الليلة دون أن يقرر. نام على جنبه الأيمن، لأن ذلك أكثر بركة وأكثر صحة.

أما في اليوم التالي، وأثناء جولة العمل مع صفاء، فقد استفسر عن العقود

السابقة، كيف نفذت، ومدى رضا غزوان عن النتائج. وتعمد ألا يسأل صفاء عن الأرقام، فقد قدّر أنه لا يعرف، أو بالأحرى يجب ألا يعرف. وسأله عن العقود التي يحتمل أن يبرمها غزوان وما هي توقعاته بالنسبة لها. وصفاء الذي حفظ الدرس جيداً، ربما بتكليف من غزوان، تلاه بطلاقة وفرح، وأشار، بسرعة، إلى أن الأمور تسير سيراً جيداً للغاية، وأن المستقبل سيكون أفضل بكثير. ولم ينس ذكر الأصدقاء الكثيرين من موران وغيرها الذين يزورون الأستاذ غزوان، أو يتصلون به، للاستعانة به أو لتكليفه بعدد من المشاريع الكبيرة، وكيف أن الأمور لم تتغير، نتيجة ما حصل في موران، بل ويستطيع أن يقول العكس.

كان الحكيم يستمع بكثير من الاهتمام والشغف. وكان يفترض أرقاماً ونتائج معينة للعقود والمشاريع. وتمنى لو كان قريباً من غزوان، اذن لأشار عليه بأفكار ومشاريع جديدة يمكن أن توسع أعماله وتسرّع بها، لكن ما لبث أن صرف النظر. قال لنفسه: «غزوان ملم وواعٍ ويعرف ما يجب أن يعمل» وضحك وهو يتذكر المثل: لا توص الحريص. وتذكر مقطعاً من الرسالة، وقد أشار فيه غزوان الى أن سفر وداد جاء باقتراح منه، فسأل صفاء عن الموعد المحتمل لعودتهما. تعمد أن يسأل بهذه الطريقة العامة، فأجابه أن البطاقات كانت بالدرجة الأولى، وأنها من سان فرانسيسكو ذهاباً وإياباً، وصالحة لمدة سنة قابلة للتجديد بالنسبة لأم غزوان. أما طريق العودة فإنها مرنة، إذ يمكن أن تعود عن طريق لندن أو باريس، أو أي طريق آخر تختاره.

تركت الإجابة بعض الظلال بالنسبة لعودة وداد، وقد أقلقه هذا الأمر. قال صفاء، عرضاً، عن العلاقات مع الإدارة الأميركية، وحول تأخر السفارة في منحه سمة الدخول، وقال ان ذلك يسيء الى الولايات المتحدة ويضعف الثقة بها، فأكد له صفاء أنه سيتولى الأمر بنفسه، حتى لو اضطر الى الرشوة، ودفع مبالغ معينة إلى بعض الأشخاص الذين يعرفهم ولهم علاقة، وقد يكلف محامياً لمتابعة الموضوع، وهو متأكد أن النتائج ستكون إيجابية وسريعة. سر الحكيم كثيراً، وأكد عليه أن يفعل ما بوسعه وبسرعة، وختم الحديث حول هذه النقطة، وهو يطبطب على ركبته ويضحك:

ـ تابع الأمر، يا ابني، بهمة، وحسب ما تشوفه مناسب، بس بدون ما يعرف غزوان!

وبعد قليل، ولئلا يترك ظلالاً من الشك:

ـ لان غزوان، الله يسلّمه، مشغول، وكثير النسيان.

أثناء اللقاء جاء هانس أورلخت لزيارة الحكيم. جاء بصحبة مترجم عينته السفارة. وخلال اللقاء تم التعارف بينه وبين صفاء، وبسرعة تبادلا بطاقات الزيارة وتحدثا حول فرص العمل. وقبل أن ينتهي هذا اللقاء اتفقا على أن يسافرا معاً في اليوم التالي الى بون، لأن صفاء يجب أن يلتقي هناك بالمستشار الأول للسفارة، والذي زارهما في سان فرانسيسكو وقضى أسبوعاً في ضيافة غزوان وبرفقة صفاء، وكان على هانس أن يحصل على كتاب من السفارة من أجل شراء قصرين للسلطان، أحدهما قررت موران شراءه له، والآخر قرر السلطان أن يشتريه.

تبين للحكيم، من خلال الحديث، أن أموراً كثيرة جرت في الفترة الأخيرة دون معرفته، ورغم ذلك تظاهر أنه يعرف، وأنه ملم بأدق التفاصيل، لكن ظروفه الصحية لم تمكنه من المشاركة!

في ختام اللقاء، أشار صفاء، بكثير من التهذيب، إلى أنه سيمر في اليوم التالي، «للسلام والاستئذان بالسفر»، وأشار، أيضاً، أنه جاهز لحمل أية رسالة أو توصية. أما ما تبقى من النهار فسوف يقضيه في جولة داخل المدينة وحولها وأنه استأجر سيارة لذلك.

ظل الحكيم حائراً متردداً: هل يكتب جواباً لرسالة غزوان أم لا. وفيما إذا كتب هل يبقى في إطار الرسالة نفسها أم يتحدث في الأمور الأخرى؟ وغزوان لماذا يبدي هذه التحفظات والمخاوف، ألم يكن بمستطاعه أن يقترح مكاناً لكي يلتقيا فيه دون أن يعرف أحد؟

ووداد، إذا ذهبت الى موران، متى تعود، وماذا تستطيع أن تفعل هناك؟ انه يعرف أهل موران، يعرف كيف ينظرون الى المرأة وكيف يتعاملون معها.

كان يجب أن ينبه غزوان لئلا يصبح مضغة في أفواه الصغار والكبار، في أفواه الذين يحبونه والذين يكرهونه. صحيح أن ما تركه في موران كثير وعزيز، لكن لا أحد يستطيع أن يتابعه مثله، أو على الأقل يجب أن يتابعه رجل يتمتع بالمعرفة والعلاقات. وشعر بالندم لأنه لم يطلع أحداً على الكثير من المعلومات التي لديه، كما لم يزودهم بالأوراق التي بحوزته.

لم يقل له صفاء أن يهيء رسالة، كما لم يعد. قال كلمة عامة تحتمل أكثر من معنى. انها طريقة غزوان ذاتها، فهو يحب أن يترك لنفسه وللآخرين أكثر من خيار. انها طريقة ذكية، هذا الشيء الذي لم يعرفه، كان حاداً، وكان يرى الأشياء بلون واحد، وتذكر العلاقات التي قامت له بالكثيرين، وكيف انتهت بالعداء أو بسوء الفهم. أغلب أصدقائه تحولوا الى خصوم. لماذا؟ ألم يحسن اليهم؟ ألم يساعدهم؟ لماذا أصبح البشر هكذا؟

وإذا لم يكتب، هل يكتفي بمجموعة من التوصيات؟ وهل سينقلها صفاء بدقة؟ ماذا لو أضاف اليها استنتاجاته وأفكاره، وربما أكاذيبه؟

انه يشعر بحالة من الضياع، لا يعرف كيف يتعامل مع البشر. حتى أقرب الناس اليه، زوجته، لا يعرف كيف يتعامل معها. كل واحد من الناس جزيرة منفردة عن الأخرى، يفكر وحده، يتصرف وحده. لماذا أصبحوا هكذا؟

كان مساءً كابياً أقرب الى القهر. مرت الوجوه والذكريات مثل موكب حزين. حاول أن يبعد الكتابة. قال لنفسه: «الوحيدة التي تستحق الاهتمام هي الطفلة، أما نحن فقد عشنا حياتنا كلها». وحاول أن يستعيد ملامح سلمى منذ البداية. تذكرها طفلة صغيرة تحاول أن تقول أولى الكلمات، ثم بعد ذلك كيف بدأت تمشي. كانت بإصرار تحاول لكن في الغالب لا تستطيع. كان يحبها أكثر من اخوتها الذكور، كان يعتني بها بشكل خاص. لم يكن قصده بريئاً، كان يريدها مادة لدراسته. أخضع نفسه لمنهج صارم في الدراسة خلال الشهور الأولى. كان يكوّر فمه بطريقة معينة، ويقول «بابا». ويكوره بطريقة أخرى ويقول: «دادا». راقب كيف تسير، كيف تتصرف، وكيف تتعامل مع الآخرين. بدت له، منذ اللحظة الأولى، أقرب إلى الدمية، وكاد يواصل الدراسة

لولا ان شغلته أمور الحياة، ثم سافر.

لماذا تركها وسافر؟ أمن أجل المال؟ لقد كان عنده مال يكفيه. ولماذا زوجها للسلطان؟ أمن أجل الجاه؟ لقد أصبح معروفاً ومرموقاً وقوياً بحيث لا يحتاج الى جاه أو الى موقع جديد.

في مستشفاه الذي بناه في حران، كان يتمنى لو أن سلمى طبيبة إلى جانبه. كان يتصورها تحضر معه العمليات، تساعده، تقف دائماً الى جانبه. وتخيلها تضع على وجهها القناع، ودون كلمات، من النظرة، من الإلتفاتة، تفعل ما يجب أن يُفعل، تستجيب لكل ما يريد، تلبي طلباته، تقوم ببعض الأعمال نيابة عنه. هكذا كان يتصورها، وهكذا كان يريدها.

الآن لا يعرف ماذا تفعل، أو في أية حالة نفسية هي، وأيضاً دون أن يحقق لها، أو لنفسه، ما كان يتمنى. لماذا كان أنانياً وسمح لنفسه أن يفعل ما فعله وهي، هل تسامحه؟ هل تغفر له؟

لولا البلابل، هذا المساء، لشعر بالأسى، انها لا تتوقف عن التغريد، إذ ترتفع الى أقصى مكان في القصر، أو تهبط الى جانب سيقان الأشجار، وتتخاطب بتلك الطريقة الفذة، تفعل ذلك وهي تطير وتحط، وحين ترقص أذيالها أيضاً بلذة. شعر أن لا فائدة في كل ما عاشه وما فعله، لكن تلك المخلوقات الصغيرة الراكضة تشعره بنوع من التوازن مع ما يحيط بها. ينسى لحظة، يغيب، لكن مع ذلك يحس أن حياته ذهبت دون معنى. حتى غزوان، وهو يحصل على المال يعرف كيف يتصرف به. أما هو فقد جمد كل طموحاته وحياته في مساحات من الأرض. وحتى هذه الأرض تبدو بعيدة ومستحيلة، ولا تتيح له حتى قبراً فيها. لقد أخرجوه، طردوه مثل كلب، لم يمهلوه سوى عشرين ساعة ويجب أن تخرج، لا يهم إلى أين، المهم أن تخرج. لم يستطع أن يفعل شيئاً. انتزعوه كما تنتزع الحشرة السامة، ورموا به بعيداً.

وعاد الى سلمى الصغيرة، عود النعنع، التي لا تعرف الحياة. لقد انتزعها من ألعابها، ومن عالمها الوردي لكي يلقي بها في أشداق ذلك الوحش. قال